آداب العارف

بيان للخطوات الأولى في السير
والسلوك الى الله تعالى
ويليه
شذرات من كلام أمير المؤمنين عليه السلام والعرفاء

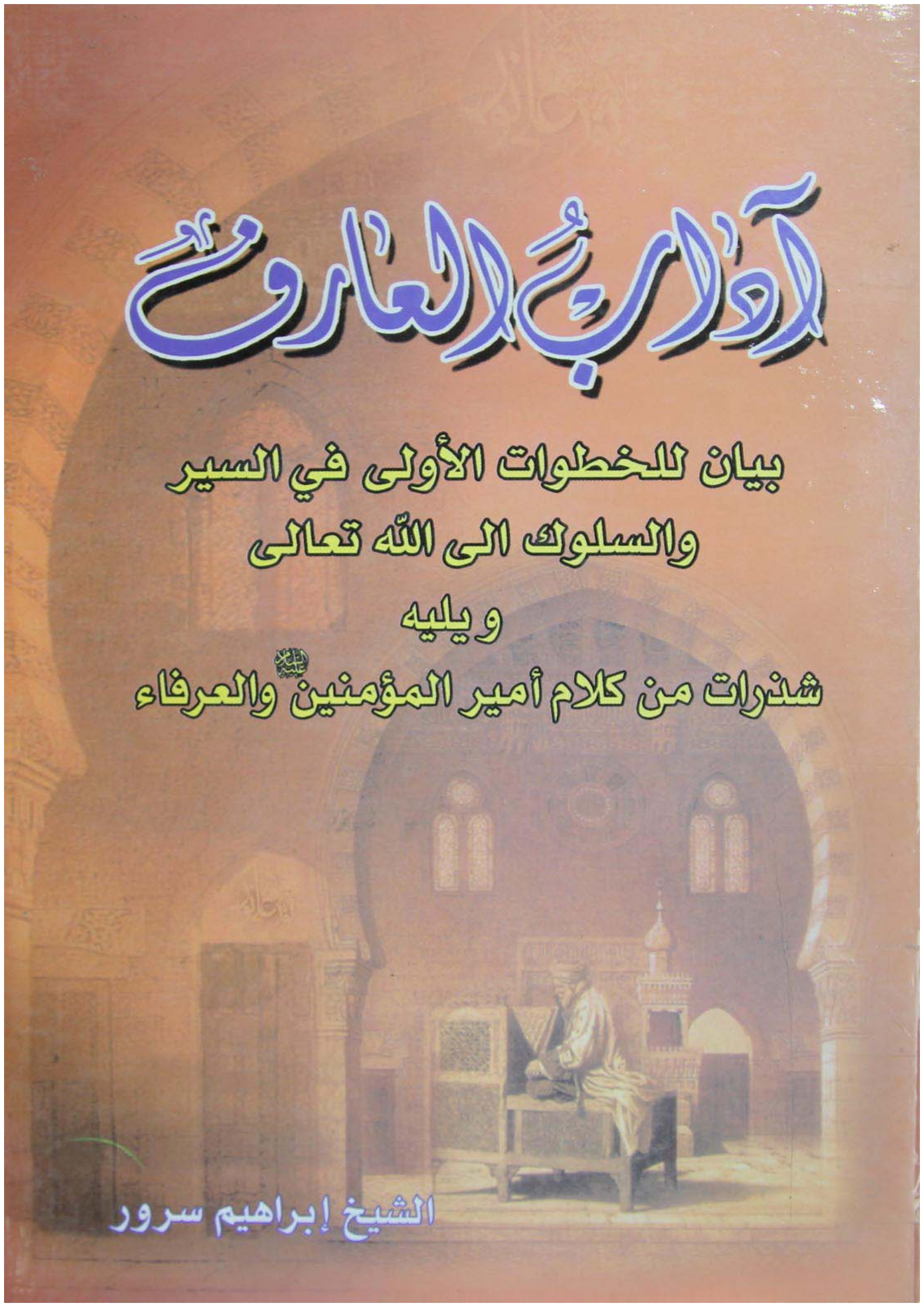

الشيخ إبراهيم سرور

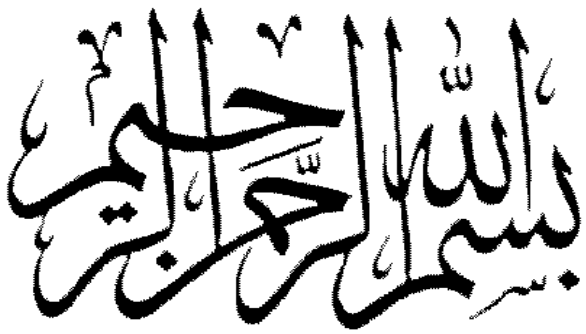
بسم الله الرحمن الرحيم

آداب العارف

بيان للخطوات الأولى في السير والسلوك إلى الله تعالى

ويليه

شذرات من كلام أمير المؤمنين عليه السلام والعرفاء

الشيخ إبراهيم سرور

دار المعارف الإسلامية

مكتبة الروضة الحيدرية

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم، صلّ وسلّم وزد وبارك على: صاحب الدّعوة النبويّة والصولة الحيدرية والعصمة الفاطمية، والأناة الحسنية، والشجاعة الحسنية، والعبادة السجادية، والمآثر الباقرية والآثار الجعفرية، والعلوم الكاظمية، والحجج الرضوية، والأفاضة التقويّة، والنقاوة النقوية، والهيبة العسكرية، والغيبة الإلهية، القائم بالحق والداعي إلى الصدق، المطلق كلمة الله، وأمان الله، وحجة الله، القائم بأمر الله، المقسط لدين الله، الغالب لأمر الله، والذاب عن حرم الله، إمام السر والعلن، دافع الكرب والمحن، صاحب الجود والمنن، الإمام بالحق، أبي القاسم محمد بن الحسن، صاحب العصر والزمان، وقاطع البرهان، وخليفة الرحمن، وشريك القرآن، ومظهر الإيمان، وسيد الأنس والجان، صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين.

الصلاة والسلام عليك يا وصيّ الحسن والخلف الصالح يا إمام زماننا، أيها القائم المنتظر المهدي، يا بن رسول الله، يا بن أمير

المؤمنين، يا إمام المسلمين. يا حجة الله على خلقه، يا سيّدنا ومولانا، إنا توجّهنا واستشفعنا، وتوسّلنا بك إلى الله، وقدّمناك بين يدي حاجاتنا في الدنيا والآخرة يا وجيهاً عند الله اشفع لنا عند الله عزّ وجلّ. (١)

والحمد لله ربّ العالمين

(١) في الصلاة المنسوبة للفيلسوف نصير الدين الطوسي يصف الإمام المهدي عليه السلام بخصوصيات آبائه أيضاً.

الإهداء

أهدي هذا الكتاب

إلى نور الله في أرضه

وحجته على خلقه

وصاحب الغيبة الكبرى

إلى من الذي أنكره فقد أنكر رسول الله ﷺ

إلى الإمام والعارف المطلق صاحب الأمر العظيم

قائم آل محمد ﷺ

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على محمد وآله أجمعين

أما بعد... قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾ (١)

هذه الآية الكريمة التي بدأت منها الكلام نستوحي من خلالها مجموعة من الفوائد التي تحكي لنا كثير من النكات ومن أهمها:

أولاً: أن أرقى الموجودات هي النفس والإشارة إلى مدى عظمتها واضحة وبيِّنة في الآيات القرآنية والروايات الشريفة.

ثانياً: بعد أن سلمنا بعظمة النفس وتشريفها على باقي المخلوقات والكائنات لا بد أن نلتفت إلى أن هذه النفس بطبيعتها

---

(١) سورة الشمس: آية ٧ــ ١٠.

ربما تصل بانحطاطها إلى أخسّ الدرجات وذلك إذا لم توجه التوجيه السليم والمستقيم وتماشت على ضوء الأهواء الفاسدة والأخلاق السفلية المنحطة الخبيثة.

وفي بعض الأحيان تجد أن هذا الإنسان عندما يسير على جادة الشريعة ويطلب الكمال لذاته يفوق بنفسه إلى أعلى الدرجات، ويصعد فوق كل المخلوقات ويصبح محلاً وأهلاً للفلاح ومصداقاً للتزكية، ولقوله تعالى **﴿قد أفلح من زكاها﴾**

ثالثاً: إن الآية الآنفة الذكر يستفاد منها إن الله سبحانه وتعالى ميّز الإنسان بين شيئين: إما التزكية وإما التدسية مختار بينهما، قال تعالى **﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾**.

رابعاً: وبغض النظر عن كل ما سبق هناك أمران أساسيان في عالم الوجود:

١. إن الإنسان خلق مفطوراً على حب كماله.

٢. والكمال اللامتناهي يتمثّل في الله تعالى.

ومن هنا: نقول أن الإنسان هو ذلك الموجود الذي يستطيع أن يكون مظهراً لجميع صفات الله وأسمائه العلمية والعملية، وإلا لما أصبح قادراً على أن يكون الخليفة المطلق لله تعالى في الأرض وأن يصل إلى مستوى أعلى من مرتبة الملائكة التي فضّل عليها بني آدم

مع ما لها من الشأنية، عندما سلك طريق الحق وتشبّه بأخلاق المولى جلّ وعلا، وقولي بأخلاق الله من باب المشاكلة كما هو مقرر في محله.

كقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾[1].

فإن كلمة ﴿فاعتدوا﴾ من باب المشاكلة وإلا فإن هذا لا يسمى إعتداء.

وعلى أي حال، وبعد إيراد هذه المقدمة الصغيرة حجماً والكبيرة مغزىً.

أقول: إعلم أن هناك طريقان: إما السعادة وإما الشقاء وإما الفضيلة وإما الرذيلة.

أما الطريق الأول فهو بلا شك موجب للسعادة الأبدية، وأما الطريق الثاني فهو موجب للشقاوة السرمدية.

والتحلي بما يوجب الأولى (أي السعادة) من أهم الواجبات.

والوقوع بما يوجب الثانية (أي الشقاوة) من أسوأ المحرمات.

وقد ذكر علماء الدين والأخلاق مصاديق كثير تخص الواجبات

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٩٤.

وما يقابلها من الأضداد (وبضدها تتميز الأشياء ـ كالرذيلة والفضيلة والحب والبغض).

وليس هذا إلا من أجل الدعوة إلى إصلاح النفس الذي بسببه تموت دول وتحيا أخرى لذا فإن من أهم الطرق التي توجب إحياء الإنسان وتسير دربه وتعطيه السعادة التي يتمناها في الدنيا والآخرة، إستعمال الفضائل وإجتناب الرذائل.

وهذا ما يتبناه علم الأخلاق الذي سوف نبحث في بعض قضاياه عن طريق الفصول التي سنذكرها في طيّات هذا الكتاب والله الموفق والمستعان.

الفصل الأول

آداب العارف

لا يخفى على المتأمل في سيرة الأنبياء والأوصياءﷺ من الحث على تربية النفس وتهذيبها بالملكات الفاضلة والتي تعمل على رفع الإنسان إلى ملكوت الله عز وجل. وإذا قصرنا النظر إلى سيرة علمائنا الأبرار أيضاً، فإنا نجد التأكيد البليغ في كلامهم على بناء قيم الإنسان الأخلاقية والدينية حتىٰ يتوجه التوجيه الصحيح في حياته مع نفسه ومع الآخرين وأكدوا أيضاً على عملية تصفية النفس من الرذائل وتحليتها بالفضائل وتصعيدها إلى درجات التكامل وهذا لا يتم إلا بالمعرفةِ أولاً، وبالمبادرة إلى الرياضة النفسية ثانياً، ولا ننسى حديث رسول اللهﷺ عندما بعث بسريّة إلى حربٍ من الحروب فلما رجعوا من تلك الحرب قال لهم: «أهلاً بقومٍ قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر»، فقالوا للنبيﷺ متعجّبين: «يا رسول الله وما هو الجهاد الأكبر؟»، فقال لهم: «جهاد النفس»[1].

إن معرفة الإنسان لنفسه ولذاته هي نوعٌ من صدقه مع نفسه، وإنّ إدراك حقيقة الذات توصلُ الإنسان إلى إحتقار ذاته ونفسه، وإلا إذا لم يحتقر الإنسان نفسه عندما يصل إلى المقام الذي يُسمّى بمقام المعرفة تكون معرفته ناقصة، ثم إنه ورد كثير من الأحاديث الشريفة التي تدلُ على معرفة النفس ومن الأمور

---

(١) فروع الكافي: ج ٥، كتاب الجهاد، باب وجوه الجهاد، ص:٣.

المؤدية إلى معرفة الإنسان بنفسه هي التفكر، وقد ورد في الحديث الشريف: «تفكّر ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنة»[1]، ولكن أيّ تفكّر، التفكّر المتعلّق بالدنيا أم التفكر الذي يؤدي إلى المعرفة بالآخرة وبالله عزّ وجلّ، لا شك ولا ريب أنّ التفكر المقصود من الحديث هو التفكر بالله وبالآخرة، والتأمّل العميق في الحقيقة الكامنة في داخل الإنسان مع العُزلة الباعثة على التفكر مما يجعل الإنسان مستعداً للوصول إلى المقام المحمود عند الله عزّ وجل، وسوف نبيّن إن شاء الله تعالى أنه كيف سيتضح لنا أن المعرفة أساس كلّ شيء ومن خلال هذه المعرفة يُمكن للفرد منّا أن يجد ذاته ويحقق المطلوب من ذاته وهو إنكارها بعد معرفتها، وقد جاءت المعرفة في كلام الفلاسفة والعلماء والأنبياء والأوصياء بعبارات مختلفة، وإنما الكلام في الأثر المترتب على الجهل المتراكم الذي يُخيم ظلامه على العبد عندما يتوجّه إلى غير الله عزّ وجل، وإنّ سبب ذلك هو الجهل بالله سبحانه وتعالى الناشئ من الأنانية، والإنية، وحب الذات، وعدم نُكران النفس، والكبرياء، وعدم التواضع، وفي هذا المجال يقول الفيلسوف ديكارت (كلّما قلت معرفة الإنسان بنفسه إزداد كبرياء) ذلك أن معرفة الإنسان لنفسه تجعله يُدرك ما في نفسه

---

(١) المحجة البيضاء: للفيض الكاشاني، ج ٨، ص: ١٩٨.

من عيوب ونقائص فيتواضع ولا يستكبر على الناس ومعرفة الإنسان لنفسه تجعله يعرف نفسه على حقيقتها، يعرفها عارية بلا تزويق ولا نفاق ولا خداع[1]، ومن بعض الأمور التي يمكن من خلالها أن يجتهد الإنسان للوصول إلى طاعة الله سبحانه وتعالى، الصداقة المخلصة الناشئة عن المعرفة.

قال الصادق عليه السلام: «وساعة لمعاشرة الإخوان الذين يُخلصون لكَ في الباطن ويُعرّفونك عيوبك[2]»، لا أنهم يخادعوك ويزيفوا ما أنت فيه من الجهل والعمى والضلال فيعطوك الصورة الكاذبة عن الواقع الذي تعيش فيه وتسوده الوحشية، وهذا التصوير منهم كي لا تعارض تصرفاتك مصالحهم الشخصية فيما لو كنت على خلاف إرادتهم، ثم إن الله سبحانه لا يقبل علماً بدون عمل فإنه لا شكّ ولا ريب في عدم قبوله العمل بغير معرفة باعتبار أن المعرفة تدلّ على العمل الصحيح، ومما يؤيد هذه الحقيقة ما ورد في الكافي من النص: محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن محمد بن سنان عن ابن حُسكان، عن حسن الصيقل قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « لا يقبل الله عملاً إلاّ بمعرفة ولا معرفة إلاّ بعمل فمن عرف

---

(١) ديكارت، الجانب الأخلاقي في فكر الإمام الخميني، ص٥١، ٥٢.
(٢) سيماء الأولياء وكراماتهم ص٢٥٠.

دلّته المعرفة على العمل ومن لم يعمل فلا معرفة له، إلاّ أن الإيمان بعضه من بعض»[1].

وهذه المعرفة تولد معرفة أهلها، فإن كانت هذه المعرفة حقيقية فتولد معرفة أهلها الحقيقيين « اعرف الحق تعرف أهله»، وكان الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «إنك لم تعرف الحق فتعرف أهله، ولم تعرف الباطل فتعرف من أتاه». ويقول أيضاً: «أنظر إلى ما قيل، ولا تنظر إلى من قال»[2]. وهو يُشير إلى المعرفة، واعتبر العلماء بأن المعرفة خير، والجهل شر، وقالوا في تعريفها بأنها التي تلزم صاحبها بإتيان السلوك المطابق للصورة الذهنية الموجودة في عقله والمنطبعة في ذهنه، وهناك من عوّل في رأيه على أنّ المعرفة تتصل بالواقع الخارجي وعلى ما يتعلق به من إنطباعات معرفية ومنهم عرفها برأيه بالنتيجة العملية التي تتأتى على التصرف الأخلاقي فما يستفيده الإنسان من نظريات يُطبّقها وتصير في حيز الوجود ويكون هذا التصرف الناتج عنها أخلاقي. ثم إنّ المعرفة مسبوقة بالجهل ولذلك يسمى الحق تعالى عالماً دون العارف لأن العارف مسبوق بنسيان حاصل بعد التعلم، ولا يخفى أن هناك جملة من العلماء والمحدثين خصصوا

---

(١) أصول الكافي، ج١، ح٢، ص٩٢.
(٢) البحار، غرر الحكم١: ٣٥٥.

أبواباً مستقلة في العقل والجهل والعلم والمعرفة ونحو ذلك.. منهم الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، وهناك أحاديث كثيرة وردت عن لسان أهل البيت عليهم السلام والرسول الأكرم صلى الله عليه وآله يمكن أن نتعرض لها في مقام بيان ما يصدق على العارف بالله التي إن اتصف بها بلغ المقام الرفيع المغبوط عند الله وعليه فمن جملة هذه الصفات:

١ـ الصواب وعدم الخطأ:

ربما ترد علينا أشياء لا نعرفها في كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وآله ونُسأل عنها، فنجيب عنها بلا معرفة وهذا هو الخطأ الأكبر، وإن هذا التصرف ينافي المقام الذي نحن بصدد بيانه، ولقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام: «تردُ علينا أشياء ليس نعرفها في كتاب الله ولا سيئة فننظر إليها ولا سُنه فننظر فيها»، فقال: « لا، أما أنك إن أصبت لم تأجر، وإن أخطأت كذبت على الله»[1]. فكيف يُمكن لنا تصور نيل الأجر والثواب ما دُمنا لم نُجِب عن معرفة وعلم، وهذا إن دلّ على شيء إنما يدلّ على التصدّي لمقام العلم والمعرفة لمن ليس له بأهل، وعليه يدور صاحبه مدار المنافقين والمخادعين.

---

(١) جامع المعارف والأحكام، ج١، ص٤١.

٢- ثبات إيمانه:

قال الصادق عليه السلام: «من دخل في الإيمان بعلم - أي بمعرفة - ثبت فيه ونفعه إيمانه، ومن دخل فيه بغير علم خرج منه كما دخل فيه»[١]. وهذا الكلام يؤكد أن من دخل الإيمان بمعرفة وعلم ثبت فيه وإلا فلا يمكن أن ينتفع في إيمانه فيما لو لم يتعرف على كتاب الله وسُنّة نبيه ويدخل بهما، وإنما ذكرتُ الكتاب والسُنة وعبرت بهما لأنهما الطريقان الوحيدان المؤديان إلى الثبات على الدين والإيمان وما قاله الإمام الصادق عليه السلام هو خير دليلٍ على هذا وهو أنه: «من أخذ دينه من كتاب الله وسُنّة نبيّه زالت الجبال قبل أن يزول، ومن أخذ دينه من أفواه الرجال ردته الرجال»[٢].

٣- العارف أعقل الناس:

وقد نعتهم الإمام الصادق عليه السلام وباقي أئمة أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام بذلك في كثير من الأحاديث التي دلّت على إعتبارهم أعقل الناس. قال الإمام الصادق عليه السلام: الناس على أربعة أصناف:

---

(١) جامع المعارف والأحكام، ج١، ص٤١.
(٢) جامع المعارف والأحكام، ج١، ص٤٠.

جاهل متردِّي معانق لهواه:

وعابدٌ بتقوى كلما ازداد عبادة ازداد كبراً: أي أنه عندما يتلبس الشيطان ويستحوذ على ابن آدم يجعله مُعجباً بتصرفاته وعباداته مغروراً بها وبنفسه فرحاً بعمله يظن كأنه قد قطع المسافات والجبال والفيافي وأشواطاً كبيرة حتى وصل إلى المقام المحمود عند الله وهو لا يزال قابعاً في محلّه ويَسِمُ نفسه بالمقام الذي وسم الله نبيه الأكرمﷺ به وهو المقام المحمود، وهذا يكون نابعاً عن الجهل وعدم المعرفة بحقيقة الأمور، وحقيقة العبادة، وحقيقة النفس، وهذا الأمر هو من تلبيسات الشيطان وتعزيراته وإنما يزيّن لنا أعمالنا فينبغي أن نكون حذرين، إن الإنسان كلما ازداد معرفة ازداد تواضعاً وقُرباً من الله وبُعداً عن الكبرياء، لأن الكبرياء كما ورد في الحديث رداءُ الله فمن ارتدى الكبرياء فقد نازع الله ردائه، والعبادة التي لا توصل إلى المعرفة تُعتبر مجرّد حركات صورية ظاهرية نؤديها فقط لا غير، وهذا يضرُ بنا ولا يقرّبنا حتماً إلى الله تعالى فينبغي الإلتفات إلى هذا الأمر بمعنى أن نكون في عبادتنا متوجهين إليه وحده لا شريك له إن كنا نريد السعادة في الدنيا والآخرة فإن أردنا ذلك فيترتب علينا واجبات وأمور لا بدّ من الإلتزام بها وهي شرط لقبول العبادة. ثمّ يتابع الإمامؒ في تعداده لأصناف

الناس يقول:

وعارف على طريق الحق يحب القيام به، فهو عاجز مغلوب، فهذا أمثل أهل زمانه وأرجحهم عقلاً[1]:

هذا العارف يُحب القيام بالحق ومن صفاته القيام بالحق والعدل، كما كان سيدنا سيد العارفين ومولى المتقين وأمير الموحّدين علي بن أبي وطالب عليه السلام الذي كان يريد أن يستلم الخلافة ويحترق لأنها ضاعت من يده من أجل الله وهو يقول: «أما والله لقد تقمصها ابن أبي قُحافة وهو يعلم أنّ محلي منها محل القطب من الرحى، ينحدر عني السيلُ ولا يرقى إليّ الطير[2]إلى آخر خطبة الإمام عليه السلام. ولقد دخل عليه أحد أصحابه وهو يخصف نعله فالتفت إليه أمير المؤمنين عليه السلام وقال: «كم تساوي هذا النعل» فأجابه: « لا شيء، قال له: إن إمارتكم أو خلافتكم هذه لا تساوي عندي شيئاً إلا أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً » ويقول في مقام آخر: «لولا حضور الحاضر وقيام الحجة بوجود الناصر وما أخذ الله على العلماء بأن لا يُقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت أولها بكأس آخرها، ولألفيت دنياكم هذه أهون

---

(١) جامع المعارف والأحكام، ص٣٦٠.
(٢) الخطبة الشقشقية، ج١، ص١١٨، شرح ابن أبي الحديد.

عندي من عفطة عنز»[1].]

إن الدنيا لم تكن تساوي شيئاً في نظر الإمام علي عليه السلام وهذه الصفة يجب أن يتحلى بها العارف بالله الذي يُعتبر أقرب الناس إليه عزّ وجلّ.

وعالم يريد أن يوطئ عقباه ويحب محمدة الناس[2]:

عندما ننظر إلى الشارع المقدّس نجد بأنه قد بيّن لنا أن العالم المُعجب بنفسه والذي يحب محمدة الناس لأجل عمله وهو يعمل ليصرف وجوه الناس إليه كما جاء في الحديث لا من أجل الله، فمن المستحيل أن يكون هذا طبيباً ناصحاً لغيره و كما قال النبي عيسى عليه السلام: «الدنيا داء الدين، والعالم طبيب الدين، فإذا رأيتم الطبيب يجر الداء إلى نفسه فاتهموه واعلموا أنه غير ناصح لغيره»[3].

٤- السكوت:

واعلم أن السكوت وتقييد اللسان من آثار المعرفة، وإن السكوت شجرة تُثمر المعرفة ولا نجاة للعبد إلا بحفظ اللسان

---

(١) نهج البلاغة ج١٠، ص٣٨٩ شرح ابن أبي الحديد.
(٢) جامع المعارف والأحكام، ص٣٦.
(٣) جامع المعارف والأحكام، ص٣٧.

والعارف حافظ للسانه، فالعارف يكون من أهل النجاة لذا ورد أن عقبة ابن عامر سأل النبيﷺ:

ـ «يا رسول الله ما النجاة؟»

ـ قال:«املك عليك لسانك وليسعُك بيتك وابكِ على خطيئتك»[1].

ـ وقال معاذ بن جبل: «قلت يا رسول الله أنؤاخذ بما نقول؟»

ـ فقالﷺ: «ثكلتك أمُك يا بن جبل، وهل يُكب الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم»[2].

ولا بدّ من الإعتقاد بأن المعرفة الحقيقية هي التي تُربي عند الإنسان الأخلاق الحقيقية من حفظ اللسان الذي يورد الموارد ويؤدي إلى المُهلكات، وكف النفس عن الأذى وملكها عند الغضب وساير أفعال الدين والمتدينين الحقيقيين.

ويُنقل عن السيّد الطباطبائيﷺ قوله: «إنّ للسكوت آثاراً عظيمة أسكتوا أربعين صباحاً وستجدون آثار الحكمة تظهر من قلوبكم لتجري على ألسنتكم».

---

(١) تنبيه الخواطر، ج١، ص١٠٤.
(٢) تنبيه الخواطر، ص١٠٥.

ثم أنّ العمل والصمت يورث الإخلاص كما جاء عن النبي الأكرمﷺ أنه قال: «ما من عبد يخلص العمل لله تعالى أربعين صباحاً، إلاّ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1]. وإنّ من آثار المعرفة الحكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾[2]. قال النبيﷺ: «طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله، فانظر كيف قلب الناس ذلك فأمسكوا فضل المال وأطلقوا فضل اللسان»[3]. وهذا يؤكّد أنّ الصمت يورث الحكمة كما جاء في الحديث الشريف، وروي أن لقمان الحكيم دخل على داوود وهو يسرد درعاً ـ أي ينسج درعاً ـ ولم يكن رآها قبل ذلك فجعل يتعجّب ممّا رأى فأراد أن يسأله عن ذلك فمنعته الحكمة فأمسك نفسه ولم يسأله عن ذلك فلمّا فرغ داوودﷺ ولبسها، ثم قال:« نِعمَ الدرع للحرب»، فقال لقمان «الصمت حكم وقليل فاعله»، أي أنه حصل العلم له من غير سؤال واستغنى عن السؤال، وقيل: كان لقمان يتردد إليه سنة كاملة وهو يريد أن يسأل عن ذلك ـ أي العلّة في سرد داوود لدرعه ـ ولم يسأل فترك السؤال فيه عما لا يعنيه[4].

---

(١) جامع السعادات، ج٢، ص٤٠٥.
(٢) البقرة: آية٢٦٩.
(٣) تنبيه الخواطر، ص١٠٥.
(٤) تنبيه الخواطر، ص١٠٨.

وترك الكلام فيما لا يعني هو راحة عظيمة وفائدة جليلة ولا تصح هذه الحالة إلا بأن نجعل الموت بين أعيننا، ونعتبر أنفسنا مسؤولة عن كل كلمة وأنفاسنا محصية علينا. يقول تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ* يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[1] وقوله أيضاً: ﴿ما يلفظ من قول إلا لديه رقيبٌ عتيد﴾[2]. أليس جديرٌ بنا أن نستحي ونتذكر وقوفنا يوم القيامة أمام الله وتُنشر صحيفتنا بين يديه تعالى التي ملأناها بالذنوب والمعاصي وفيما لا يعنينا صدر النهار بين يديه تعالى وكل ما فيها خارج عن أمر ديننا ودنيانا.

٥. الإجتناب عن المحارم:

إن الإجتناب عن المحارم إنما يتم من خلال العلم والمعرفة، فقد روي عن الإمام الصادق﵇ في تفسير قوله تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربّه جنتان﴾[3]، فقال: «من علم أن الله عزّ وجل يراه ويسمع ما يقوله عن القبيح من الأعمال فذلك الذي خاف مقام ربّه ونهى النفس عن الهوى»[4]. فإذا خاف العبد

---

(١) سورة الإنفطار: آية ١٠ــ ١٢.
(٢) سورة ق: الآية١٨.
(٣) سورة الرحمن: الآية: ٤٦.
(٤) الكافي، ج٢، باب الخوف والرجاء، ص٦٧.

مولاه امتنع عن عصيانه، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «ما أحب الله من عصاه»[1]، ثم تمثل بهذين البيتين، قائلاً:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّهُ
هذا لعمري في الفعال بديعُ
لو كان حبك صادقاً لأطعته
إن المحب لمن يُحب مطيعُ[2]

وقال سيّد العارفين أمير المؤمنين عليه السلام: «لو أعطيتُ الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها على أن أُعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلت»[3].

٦- معرفة النبي والأئمة عليهم السلام:

في الدعاء المروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «اللهم عرفني نفسك فإنك لم تعرّفني نفسك لم أعرف نبيك، اللهم عرفني رسولك فإنك إن لم تعرفني نبيك لم أعرف حجتك، اللهم عرفني حجتك فإنك إن لم تعرفني حجتك ضللت عن

---

(١) بحار الأنوار.
(٢) البحار، مادة حبّ.
(٣) نهج البلاغة.

ديني»[1].

إنّ البعد المعنوي عن الأئمةﷺ يؤدي بالإنسان إلى الموت الجاهلي، فإذا عرف الإنسان هذا الشيء وعرف عظمة الله، وجعل نفسه حقيرةً أمامه، ولم يعتدي على غيره بالإستحقار

وتجنّب كل ما يوجب المقت والتحذير من الله تعالى، وعلم أنّ هذه المعارف هي من تعاليم أهل البيتﷺ الذين يجب أن نتمسّك بأذيال ولايتهم ويجب أن نعمل فيما جاء التنبيه عليه لنا منهم، ينبغي على العارف العالم العاقل أن لا يسخر من غيره وأن تكون مواقفه داعية إلى الثبات والإعتدال في شخصيته، وأن يكون متوازنا بمعنى أن يجعل ميزاناً بينه وبين إخوانه كما جاء في وصية الإمام عليﷺ لإبنه الحسنﷺ: "يا بني إجعل ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تكره لها"[2]. وقوله في عهده لمالك الأشتر: «الناس صنفان: إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»[3].

المعرفة تحتم على المؤمن أن لا يكون متزمتاً مخادعاً منافقاً، وأن لا يكون كثير المزاح بحيث يفرط في مزاحه، وهذا المطلب

---

(١) دعاء الغيبة لصاحب الأمر، مفاتيح الجنان، ص٨٠٠.
(٢) نهج البلاغة، ص٢٥٩، ج١٦.
(٣) نهج البلاغة، ص٢٥٩، ج١٦.

إنما أشير إليه لحقيقة الإبتلاء به فعلاً في كافة المجتمعات التي نعيش فيها وعند عامة الناس، وهذا هو الذي يُمزق الأمة ويجعلها في معرض الإستهزاء والإستحقار من قبله ومن قبل الآخرين الذين يؤمّنوا له هذا النوع من العمل الهستيري عندما يرتكب هذه المفجعات من أعماله وأفعاله، نحن لا نقول أن لا يمزح مُطلقاً ولكن نستثني من المزاح المُطايبة القلبية بمعنى أن لا يكون مُفرطاً في مزاحه فهذا القدر غير منهي عنه وإن كثرة المزاح واللهو واللعب والضحك مذمومٌ شرعاً وعقلاً فإن كثرته والإفراط فيه يُميت القلب ويورث الضغينة ويسقط المهابة والوقار، فما يخلو من هذه الأمور لا يكون مذموماً شرعاً وعقلاً كما روي عن النبيﷺ قوله: «إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً»[1]. فالذي يكون غرضه أن يُضحك الناس هذا يُعتبر خروجاً عن المألوف ويُصب في خانة المتزمتين والذين قال فيهم الرسولﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها جلساءه فيهوى بها أبعد من الثريا ولأن الضحك يدل على الغفلة عن الآخرة»[2].

---

(١) كتاب تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، باب المزاح، ص١١١.
(٢) كتاب تنبيه الخواطر ونزهة النواظر، باب المزاح، ص١١١.

وقال ﷺ: «لو علمتم ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتم قليلاً».

وقال رجل لأخيه: «هل أتاك أنك وارد النار».

- قال: «نعم».

- قال: «فهل أتاك أنك خارجٌ منها».

- فقال:« لا».

- قال: «فممَّ الضحك».

ولا تظن أن الدين الإسلامي يريد منك أن تكون عابساً حقوداً تنظر بعين الحقارة إلى الناس أو إلى من يتوجه بالضحك على شيء معين فهذا خداع من الشيطان يريد أن يوقعك فيما لا يُحمد عُقباه ويُخرجك من الظلمات إلى ظلمات أشدُّ ممّا أنت فيه وتذكّر الحديث الذي يقول: «إحمل أخاك على سبعين محملاً»[1]. فإن لم يكن له عذر أنت أختلق له العُذر حتى لا تقع فيما هربت منه من المعصية، ولا يغرنك الشيطان فيما أنت فيه إن كنت كذلك فتتصوّر بأنك من أفضل الناس عملاً بالآداب المقدسة إن كنت ملتزماً بها إلا أن هذا أيضاً يعرفك المخاطر التي تؤدي بك إلى الوقوع بالحرام فإنتبه إلى أن الحمل على

---

(١) ميزان الحكمة، الري شهري، ج٤، ص١٩٢.

ترك الضحك إنما هو من جرّاء ما يرتكبه الإنسان من فضائح في حق نفسه فيكون ضحكه معبّراً عن عدم إحساسه بالمسؤولية أمام ما ارتكبه من ذنوب ولذا قال ابن عباس: «من أذنب ذنباً وهو يضحك، دخل النار وهو يبكي»[1].

ـ وقال بعضهم: «إذا رأيت في الجنة رجلاً يبكي أليس تعجّب من بكائه؟»[2].

ـ قال: «بلى».

ـ قال: «والذي يضحك في الدنيا وهو لا يدري إلى ما يصير هو أعجب منه».

أقول: والمذموم من الضحك أن يستغرق ضحكاً كثيراً مفرطاً بشكل يُسمع الصوت والمحمود التبسم الذي ينكشف منه السن لا غير كما كان ضحك الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام.

هذه أدوية وعلاجات نافعة لنيل الأخلاق التي توصل إلى المعرفة الحقيقية.

---

(١) كتاب تنبيه الخواطر، ونزهة النواظر، باب المزاح، ص١١٢.
(٢) كتاب تنبيه الخواطر، ونزهة النواظر، باب المزاح، ص١١٢.

٧- شخصه مع الخلق:

قال الصادق عليه السلام: «العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله، لو سهى طرفة عين لمات شوقاً إليه، والعارف أمين وقايع الله وكنز أسراره ومعدن أنواره ودليل رحمته على خلقه، ومطية علومه وميزان فضله وعدله قد غنى عن الخلق والمراد والدنيا، ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق له ولا إشارة ولا نفس إلا بالله ومع الله ومن الله فهو في رياض قدسه متردد، ومن لطائف فضله إليه متزود والمعرفة أصل وفرعه الإيمان»[1]، هذا يُعلمنا أن نكون دائماً مع الله وأن الكون مع الله من صفات العارف وهو شيء لا شيء أفضل منه بحيث لا يغيب عن الله في أفعاله وسلوكه وأعماله وآثاره لحظة واحدة. وأن يتفرغ له تفرغاً كاملاً بالتفكر والعبادة والذكر، ليجلب سكون النفس عن كل خوف، سواء كان متعلق الخوف الدنيا، أم الآخرة من الموت وغيره وقد أكّد القرآن الكريم على هذه الصفة من صفات العارفين حيث قال عزّ من قال: ﴿ولا يخافون لومة لائم﴾[2]، وقال النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: «دع ما يُريبك إلى ما يريبك»، ويقول أمير

---

(١) بحار الأنوار، ج٣، باب ثواب الموحدين والعارفين، ومصباح الشريعة، ص١٩١.

(٢) سورة المائدة: آية٥٤.

المؤمنين عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فظهر مصباح الهدى في قلبه»[1]. فيكون همّه مع الله، قلبه مع الله، روحه مع الله، قال النبي صلى الله عليه وآله: «موتوا قبل أن تموتوا»[2]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: وهو يتحدث عن صفات العارف بالله: «قد خلع سرابيل الشهوات وتخلى من الهموم إلا همّاً واحداً إنفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، فصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك في العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو في اليقين على مثل ضوء الشمس»[3].

٨- الحب والشوق الدائمين:

فلا تراه يشتهي طعاماً ولا يلتذ بشرابٍ ولا يرى الراحة في أية حالٍ إلا عند لقاء الله تعالى ويدل على ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: « لا راحة لمؤمن على الحقيقة إلا عند لقاء الله»[4]، وهذا الشوق لا يكون نابعاً من أجل الحصول على

---

(١) نهج البلاغة.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٦، باب صفات خيار العباد.
(٣) نهج البلاغة، خطبة٨٧.
(٤) بحار الأنوار، ج٦٧، باب أعمال المؤمنين.

الملذات الأخروية وإنما يكون لأجل لقاء الحبيب بمحبوبه والعاشق بمعشوقه لأنه أهل لذلك وإليه أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك إنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[1]. فالعودة إلى الله أنجح طريق وأفضل علاج لنيل المقامات المحمودة والمرجوة عنده تعالى، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: ﴿إذا علمت أن الغالب على عبدي الإشتغال بي نقلت شهوته إلى مسألتي ومناجاتي فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو، حلت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً أولئك الأبطال حقاً أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال﴾[2].

قال الصادق عليه السلام: «القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله»[3].

إن رحمة الله عزّ وجلّ اقتضت أنّ نبياً من أنبياءه عليهم السلام أحبّ أن يريه الله بعض أهل أحباءه وأولياءه، وهو أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه بعض أهل محبّيه.

---

(١) نهج البلاغة.
(٢) وسائل الشيعة، باب العقل والشهوة.
(٣) البحار ج٦٧/٢٥، باب٤٣، ح٢٧.

المؤمنين عليه السلام: «إن من أحب عباد الله إليه عبداً أعانه الله على نفسه، فاستشعر الحزن وتجلبب الخوف، فظهر مصباح الهدى في قلبه»[1]. فيكون همّه مع الله، قلبه مع الله، روحه مع الله، قال النبي صلى الله عليه وآله: «موتوا قبل أن تموتوا»[2]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: وهو يتحدث عن صفات العارف بالله: «قد خلع سرابيل الشهوات وتخلى من الهموم إلا همّاً واحداً إنفرد به، فخرج من صفة العمى ومشاركة أهل الهوى، فصار من مفاتيح أبواب الهدى ومغاليق أبواب الردى، قد أبصر طريقه وسلك سبيله وعرف مناره وقطع غماره واستمسك في العرى بأوثقها، ومن الحبال بأمتنها، فهو في اليقين على مثل ضوء الشمس»[3].

٨- الحب والشوق الدائمين:

فلا تراه يشتهي طعاماً ولا يلتذ بشرابٍ ولا يرى الراحة في أية حالٍ إلا عند لقاء الله تعالى ويدل على ذلك قول الإمام الصادق عليه السلام: « لا راحة لمؤمن على الحقيقة إلا عند لقاء الله»[4]، وهذا الشوق لا يكون نابعاً من أجل الحصول على

---

(١) نهج البلاغة.
(٢) بحار الأنوار، ج٦٦، باب صفات خيار العباد.
(٣) نهج البلاغة، خطبة٨٧.
(٤) بحار الأنوار، ج٦٧، باب أعمال المؤمنين.

الملذات الأخروية وإنما يكون لأجل لقاء الحبيب بمحبوبه والعاشق بمعشوقه لأنه أهل لذلك وإليه أشار الإمام علي عليه السلام بقوله: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك إنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[1]. فالعودة إلى الله أنجح طريق وأفضل علاج لنيل المقامات المحمودة والمرجوة عنده تعالى، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسيّ: ﴿إذا علمت أن الغالب على عبدي الإشتغال بي نقلت شهوته إلى مسألتي ومناجاتي فإذا كان عبدي كذلك فأراد أن يسهو، حلت بينه وبين أن يسهو، أولئك أوليائي حقاً أولئك الأبطال حقاً أولئك الذين إذا أردت أن أهلك أهل الأرض عقوبة زويتها عنهم من أجل أولئك الأبطال﴾[2].

قال الصادق عليه السلام: «القلب حرم الله فلا تسكن حرم الله غير الله»[3].

إن رحمة الله عزّ وجلّ اقتضت أنّ نبياً من أنبياءه عليهم السلام أحبّ أن يريه الله بعض أهل أحباءه وأولياءه، وهو أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه بعض أهل محبّيه.

---

(١) نهج البلاغة.
(٢) وسائل الشيعة، باب العقل والشهوة.
(٣) البحار ج٦٧/٢٥، باب٤٣، ح٢٧.

فقال له ربّ العزّة: «ائت جبل لبنان، فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبّان، وكهول ومشايخ، وإذا رأيتهم فأقرئهم مني السلام، وقل لهم: يقول ربّكم: ألا تسألوني حاجة، فإنكم أحبائي وأصفيائي أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم».

فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عينٍ من العيون، يتفكرون في عظمة الله وملكوته فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه.

فقال لهم داود عليه السلام:

«أنا رسول الله إليكم، جئتكم لأبلغكم، رسالة ربكم» فأقبلوا نحوه، وألقوا أسماعهم نحو قوله، وألقَوا أبصارهم إلى الأرض، فقال لهم داود عليه السلام: «ربكم يقرؤكم السلام، ويقول لكم؛ ألا تسألوني حاجة، ألا تنادوني فأسمع صوتكم وكلامكم، فإنكم أحبائي، وأصفيائي، وأوليائي، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم، وأنظر إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشفيقة الرفيقة».

فلما قال داود عليه السلام ذلك جرت الدموع على خدودهم وسبّح الله كلُّ واحدٍ منهم ومجّده، وناجاه بكلمات تدل على احتراق قلوبهم من الحبّ والشوق[1].

وقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «المشتاق لا يشتهي

---

(١) جامع السعادات، ٣/١٠٠.

طعاماً، ولا يلتذ شراباً، ولا يستطيب رقاداً، ولا يأنس حميماً، ولا يأوي داراً ولا يسكن عمراناً، ولا يلبس ثياباً، ولا يقر قراراً، ويعبد الله ليلاً ونهاراً، راجياً بأن يصل إلى ما يشتاق إليه، ويناجيه بلسان الشوق معبّراً عمّا في سريرته».

كما أخبر الله تعالى عن موسى عليه السلام في ميعاد ربّه: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾.[1]

وفسر النبي صلى الله عليه وآله عن حاله:

«أنه ما أكل ولا شرب ولا نام ولا اشتهى شيئاً من ذلك في ذهابه ومجيئه أربعين يوماً شوقاً إلى ربّه فإذا دخلت ميدان الشوقَ فكبّر على نفسك ومرادك من الدنيا وودّع جميع المألوفات واصرفه عن سوى شوقك، ولبِّ بين حياتك وموتك، لبّيك اللهم لبّيك، عظّم الله أجرك.ومثل المشتاق مَثَلُ الغريق، ليس له همة إلاّ خلاصه، وقد نسي كل شيء دونه»[2].

فإن العارف في مقام الشوق يشغله الله عزّ وجلّ به عن كل شيءٍ سواه.

وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «يا من أنوار قدسه

---

(١) سورة طه: آية٨٤.
(٢) مصباح الشريعة، ١٩٦.

لأبصار محبّيه رائقة، وسبحات وجهه لقلوب عارفيه شائقة، يا من قلوب المشتاقين، ويا غاية آمال المحبين، أسألك حبّك وحبّ من يحبّك، وحبّ كلّ عملٍ يوصلني إلى قربك، وأن تجعلك أحبّ إليّ ممّا سواك، وأن تجعل حبّي إيّاك قائداً إلى رضوانك، وشوقي إليك ذائداً عن عصيانك، وامنُن بالنظر إليك عليّ، وانظر بعين الود والعطف إليّ، ولا تعرض عني وجهك، واجعلني من أهل الإسعاد والحظوة عندك، يا مجيب يا أرحم الراحمين»[1]. .

٩ ـ حسن الخلق:

بمعنى أن يكون متواضعاً أولاً وأن يجانب العجب ثانياً وهذان الوصفان قبيحان إذا وجدا في الإنسان، وبالعارفين أقبح لأن الناس يقتدون بهم، وكثيراً ما يحاول الشيطان أن يضع لهم مكائده ويلقي عليهم حبائله ويجرهم إلى العُجب ليقول لهم بأنكم متوحدون في الفضيلة والمعرفة، متجنبون للرذيلة والجهل، من هنا يجب أن يُعْلَم ويَعلَم العارف أن العجب من النواقص الدينية والأخلاقية وهو آفة الدين ومُفسد العمل ومورد المهلكات وكما جاء في الحديث عن النبيﷺ: أنه قال: «قال الله

---

(١) مفاتيح الجنان، ص١٨١، مناجاة المحبين.

عز وجل لداود: يا داود بشّر المذنبين وأنذر الصديقين».

قال: "كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين؟".

قال: «يا داود بشّر المذنبين أني أقبل التوبة وأعفو عن المذنب، وأنذر الصديقين: ألا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبدٌ أنصبه للحساب إلا هلك».

١٠. الحزن والبكاء:

قال الصادق عليه السلام: «الحزن من شعار العارفين»[١]، وقال الله عز وجل ﴿لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الفَرِحِين﴾[٢] (سورة القصص)- حكاية قول قوم قارون. وقال أيضاً في سورة النجم ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا تبكون وأنتم سامدون﴾[٣] أي لاهون.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «البكاؤون خمسة: آدم ويعقوب ويوسف وفاطمة بنت محمد وعلي بن الحسين صلوات الله عليهم أجمعين - فأمّا آدم فبكى على الجنة حتى صار في خديه مثل الأودية، وأمّا يعقوب فبكى على يوسف حتى ذهب بصره وحتى قيل له: تالله تفتأ تذكر يوسف حتى تكون مرضاً أو تكون من الهالكين، وأما يوسف فبكى على يعقوب حتى تأذى به أهل السجن فقالوا إما أن تبكي بالنهار وتسكت بالليل، وإما أن تبكي بالليل وتسكت بالنهار فصالحهم على واحد منها، وأما فاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله فبكت على والدها رسول الله حتى تأذى بها أهل المدينة وقالوا لها قد آذيتنا بكثرة بكائك فكانت

---

(١) مصباح الشريعة، ص١٨٧.
(٢) سورة القصص: الآية٧٦.
(٣) سورة النجم: الآية٦٠

تخرج إلى مقابر الشهداء ـ فتبكي حتى تقضي حاجتها ثم تنصرف، وأما علي بن الحسين عليه السلام فبكى على أبيه الحسين عليه السلام عشرين أو أربعين سنة (على أصح الروايات)، وما وضع بين يديه طعام إلا وبكى حتى قال مولى له: جُعلت فداك يا بن رسول الله إني أخاف عليك أن تكون من الهالكين قال: إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون إني لم أذكر مصرع بني فاطمة عليها السلام إلا خنقتني العبرة»[1].

وقال الصادق عليه السلام: «لما حضر الحسن بن علي عليه السلام، الوفاة بكى فقيل له: يا بن رسول الله تبكي، ومكانك من رسول الله الذي أنت فيه وقد قال فيك رسول الله صلى الله عليه وآله ما قال، وقد حججت عشرين حجة ماشياً، وقد قاسمت ربك ثلاث مرات حتى النعل والنعل، قال عليه السلام: إنما أبكي لخصلتين: لهول المطلع، وفراق الأحبة».

وقيل أن سعد بن عبادة إشتكى شكوة فأتاه رسول الله صلى الله عليه وآله يعوده بمرضه، فلما دخل عليه وجده في غشيته فقال: «أوقد مات؟» فقالوا: «لا يا رسول الله»، فبكى رسول الله صلى الله عليه وآله فلما رأى القوم بكاؤه بكوا أيضاً.

---

(١) روضة الواعظين، ج٢، ص٤٥١.

فقال: «ألا تسمعون أن الله لا يعذّب بدمع العين ولا بحزن القلب ولكن يُعذّب بهذا ـ وأشر إلى لسانه ـ أو يرحم».

ولا يخفى أن الحزن بالمعنى الذي يشلّ الإنسان عن العمل الاجتماعي، وعن الانشراح مع إخوانه المؤمنين، ويوجب انقباضه عن الناس، وانقباض الناس عنه، إنما يناسب أهل العرفان الكاذب، أمّا العارف الصحيح فحزنه يكون كامناً في قلبه يمنعه عن الأشر والبطر والبطالة، ولكن بشره في وجهه، محبّب إلى الناس، وجلاّب لعواطف القلوب، ومهتم بقضاء حوائج المؤمنين الخاصة، وبهموم المسلمين والإسلام العامة[1].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «المؤمن بشره في وجهه، وحزنه في قلبه، أوسع شيء صدراً، وأذل شيء في نفسه، يكره الرفعة، ويشنأ السُمعة طويل غمّه، بعيدٌ همّه، مشغول وقته، شكور، صبور، مغمور بفكرته، ضنين غلته، سهل الخليقة، ليّن العريكة، نفسه أصلب من الصلد، وهو أذلّ من العبد»[2].

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إن شعيباً بكى من حبّ الله عزّ وجلّ حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، ثم بكى حتى عمي فردّ الله عليه بصره، فلما كانت

---

(١) تزكية النفس (الحائري) ص٣٠٣.
(٢) نهج البلاغة، ص٧٢٤، رقم الحكمة ٣٣٣.

الرابعة أوصى الله إليه؛ يا شعيب إلى متى يكون هذا أبداً منك؟ إن يكن هذا خوفاً من النار فقد أجرتك، وإن يكن شوقاً إلى الجنة فقد أبحتك.

فقال: إلهي وسيدي أنت تعلم أني ما بكيت خوفاً من نارك ولا شوقاً إلى جنتك، ولكن عقد حبك على قلبي فلست أصبر أو أراك، فأوحى الله جلّ جلاله إليه: أمّا إذا كان هكذا فمن أجل هذا سأُخْدِمُكَ كليمي موسى بن عمران»[1]..

(١) البحار، ١٢/٣٨٠، باب١١، ح١١.

الفصل الثاني

التفكر

من جملة الصفات والآداب التي لم نتعرض لها في الباب السابق هي موضوع: الإعراض عن الدنيا بالزهد والعبادة، ويُمكن أن يتفرع من هذا الباب أبواباً كثيرة لأن الزهد والعبادة مما يُلزم العبد بأن يجتنب بقية الأمور التي تجعله محجوباً أمام العظمة الإلهية والنفحة الربانية عندما تكون الأعمال المرَضية طاغية عليه، من هنا كان لا بد من ذكر الغرض الأساس المُترتب على السالك طريق الله سبحانه وتعالى، وهذا الغرض معروفٌ لدى الكثيرين ألا وهو نيلُ الكمالات العُليا التي تُقرّب العبد من مولاه فهذا غايةُ ورجاء كل عبد يُريد أن يصل إلى الله جلّ وعلا، ومن هنا يُمكن لنا أن نقول بأن الآخرين الذي سلكُوا هذا الطريق بدون بصيرة لا يمكن أن يكونُوا غداً في جوار الله عز وجل، فإن الباحث عن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يجده لا بدّ وأن يتعلق بأذيال أهل البيت عليهم السلام ويتشبث بأخبارهم ويخضع لنصوصهم الكريمة التي وردت عنهم عليهم السلام لذلك ورد في الدعاء المعروف عن الإمام الصادق عليه السلام، أنه قال: "من أراد الله بدأ بكم" ولما كان الغرض الأساس للسالك نحو الله سبحانه وطالب القرب الإلهي أن يصل إلى الكمال الذاتي ويُحقق المطلوب من ورائه كان لا بُدّ له من أن يوفق هذا الطالب لذاك المطلوب، فحتى يوفق الطالب لطلبه لا بد أن يُعرض عما يعتقد أنه يبعده عن المطلوب ثم بعد ذلك يُقبل

ويواظب على ما يعتقد أنه يقربه إلى المطلوب فعندها يصل إلى المطلوب، ويلزم لطالب ذلك الكمال في ابتداء أمره وبدايته أن يعرض عمّا يشغله عن المطلوب وصاحب هذا الإعراض يُسمّى "بالزاهد" ويُطلق على الأفعال المخصوصة والعبادات الشرعية المُقربة من الله كالصيام، والقيام، والركوع، والسجود، والتفكر، والتذكر ونحوها الأركان العبادية، ويُسمّى صاحبها "بالعابد" فإنه مجرد أن وجد الحق فأول درجات وجدانه التي يكتسبها من جراء ما وجده هو المعرفة فعندما يجد العبد الله عز وجل - أي يجد من نفسه - حب الله ويحسّ دائماً بوجوده ويطيع الله من خلال ذلك بحق، فهذه الدرجة هي أول درجات وجدانه تُسمّى بالمعرفة وحينئذٍ يختص اسم العابد باسم العارف ويُمكن أن نطلق عليه إسم العارف، وهذه الأحوال يمكن أن تتركب مع بعضها البعض، تركباً ثنائياً وثلاثياً فالأوّل يكون زاهداً عابداً أو زاهداً عارفاً أو عابداً عارفاً، وأما الثاني فتركيب واحد، وفيه يقول ابن سينا الشيخ الرئيس في "كتابه الشفاء" في أوائل النمط التاسع من مقامات العارفين، (المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يخص بإسم «الزاهد»، والمواظب على فعل العبادات من القيام والصيام ونحوها يخص بإسم "العابد"، والمنصرف بفكره إلى قدس الجبروت مستديماً لشروق نور الحق

في سره يخص بإسم «العارف»، وقد يتركب بعض هذه مع بعض)[1]، فإن المعرفة تعتبر من الأمور الموصلة إلى حضرة مقام الجبروت، فعلى الإنسان اللبيب الفطن الذكي الذي يُريد أن يختص بمثل هذه المعارف يُريد أن يكون عابداً يريد أن يكون زاهداً ويريد أن يكون عارفاً بالله سبحانه وتعالى، أن يستعملها في هذا الطريق، ولا يُحيدُ عنها قيد أنملة فيُعرض نفسه للمهلكات في الدارين، وأي مقام من اللذة والعظمة يبلغه هذا الإنسان فيما لو استعمل عقله وعلمه في رضا الباري جلاّ وعلا، أما كان بالغ المقامات العلية وصاحب المحمودات السنية يستيقظ في آناء الليل ويصلي في جوفه ركعتين، ثمّ بعد ذلك يقول: «أين ملوك هذه الدنيا من هذه اللذة؟ أين سلاطين الدنيا من هذه النعمة».

إنّ هذا المقام الأوحدي الذي وصل إليه النبي الأكرمﷺ هو الذي جعله محموداً عند الباري عزّ وجل عندما اختصه بذلك، وأثني عليه عندما قال في كتابه المجيد ـ مضمون الآية الكريمة ـ **﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَّحْمُوداً﴾**[2].

---

(١) الإشارات والتنبيهات لأبي علي ابن سينا، القسم الرابع في التصوف، ص٥٨.
(٢) سورة الإسراء: آية٧٩.

وإذا صوّبنا النظر إلى جامعة الإمام زين العابدين عليه السلام العلمية العظيمة لرأينا الجلالة القدسية الرائعة والروعة الإلهية التي إشتمل عليها ذلك الإمام العظيم كما اختصّ الله تعالى بها بنيه وآبائه في مقام الخطاب الربّاني الممتلئ بالمعارف الحقيقية المعبّر عن الزهد الحقيقي والعبادة الحقيقية، لقد كان الإمام زين العابدين عليه السلام بفضل الله زاهداً عابداً، عارفاً، واصلاً، إلى مقام الحضرة القدسية وبقية أولاده وآبائه كذلك بلا شكٍ ولا ريب، وعندما ننظر إلى كيفية تعاطيهم مع الله سبحانه وتعالى من خلال أدعيتهم وكلامهم نجد الحلاوة النورانية التي ليس لها نظير في الوجود، فإننا نقرأ مثلاً في (المناجاة الشعبانية): «إلهي هب لي كمال الإنقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق الأبصار حجُب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا مُعلقةً بعزّ قدسك»[1].

إن السبب الذي جعل اهل البيت عليهم السلام يبلغون هذه الدرجة العالية من الكمال الحقيقي والعظمة الروحية هو تعلقهم بالله عزّ وجل وبعدهم عن الدنيا وإعترافهم الدائم بالتقصير وهم مُقبلون على الله عزّ وجل وهم اقرب إليه من حبل الوريد، وحقيقة الأمر أنهم غير مقصرين وغير عاصين وغير مذنبين،

---

(١) المناجاة الشعبانية، مفاتيح الجنان، ص٢١٠.

فهم يتواضعون أمام القدس الإلهي والعظمة الربانية بأنهم مهما فعلوا من طاعات تُقربهم من الله سبحانه وتعالى فإن الله عز وجل أهلٌ لذلك وهم يعتقدون بأنهم ليسوا بأهلٍ لأن يُقدموا هذه الأفعال لله سبحانه وتعالى لأن الله عظيم لا يليق به إلا العظمة، وهو بالنهاية لا يحتاج إلى أحد من خلقه. ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾[1].

هذا الإنسان المسكين قد يفلح وينجح أحياناً ولكن متى، فيما لو أخذ بالعلاجات المفيدة له التي تمحي آثار المعصية والذنب عنه، وتحوله إلى مقام نيل الكمال الحقيقي، فعليه أن يكون مستعداً لهذا قبل حصول الطامة الكبرى التي تحول بينه وبين مطلوبه، والطلب الدعائي بعد أن يصل الإنسان إلى قبره ويقول للباري ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2] وهذا واقعاً لا يُمكن أن ينفع إلا إذا كرّس الإنسان جهوده في سبيل الحصول على هذه المقامات والمراحل والمنازل وكان مُستعداً لنيل الكمالات الحقيقية.

وهذا الكمال الحقيقي له شروط يجب أن تكون متوفرة في

---

(١) سورة فاطر: الآية١٥.
(٢) سورة المؤمنون: الآية١٠٠.

وجود العبد وهي مشروطة بزوال الموانع الداخلية والخارجية، وهذا المقام يستلزم أمور ثلاثة كما ذكر علماء الأخلاق:

أولاها: إزالة ما عدا الحق تعالى عن الوجهة المقصودة وإزالته عن سواء السبيل وهي الموانع الخارجية.

ثانيها: تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة لينجذب الخيال والوهم إلى الجنة العالية مستتبعين لسائر القوى الحيوانية وهي الموانع الداخلية التي تحجب بين الإنسان وبين خالقه.

ثالثها: إعداد النفس لأنه يتمثل منها الجلايا القدسية بسرعة ـ بالتحلي بمكارم الأخلاق وغيرها.

فالزهد الحقيقي والعبادة الحقيقية المطلوبة والتي تكون مقبولة في عالم الملكوت، إنما تتم بإعراض النفس عما يشغلها عن التوجه إلى القبلة الحقيقية حتى تكون هذه العبادات مقبولة قبولاً لا يشوبه شك ولا باطل فيبدأ الإنسان بعد ذلك بإدارة باقي دفة العبادات من الذكر والتفكر ونحوها من هذه المقامات الجليلة العظيمة، فيكون قد خلى نفسه وحلاها وهذا هو المطلوب منه بالعنوان الأولي، ولا شك في وجوب كون هذه الأمور مشفوعة بمخالفة هوى النفس لأن مخالفة هوى النفس من متممات تلك المقربات لنيل المطلوب الأصلي، ولذا جاء في

عن محبة الباطل، وصفاح كيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها زلة بشر، ونسّاءٌ للأحقاد كيف لا وذكره مشغول بالحق تبارك وتعالى)[1].

ومن جملة هذه الصفات أيضاً ما يلي:

أولاً: الإرادة:

وهي محاولة (حجب النفس عن مراداتها والإقبال على أوامر الله تعالى)[2] وتوجيهها إلى ما ينفعها بالبعد عن الميول النفسانية التي تتحرك في داخل الإنسان بين الفينة والأخرى، وهي شرط أساس لإستقرار الملكات والأحوال في وجوده، وهي التي تُثمر الوجود الحقيقي وتُثمر الحث على ذكر الله تعالى في جميع الأحوال، والإلتزام بالآداب الشرعية بلا معارض.

واعلم أن كل درجة من هذه الدرجات قبل الوصول إليها فهي ناقصة بالقياس إليها.

فلو كان العبد متحلياً بصفة الزهد فهو في عالم النقصان والإحتياج إلى ما فوقه من الكمالات والصفات والمنازل

---

(١) الإشارات والتنبيهات، ص٥٩، القسم الرابع في التصوف.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص٢٠.

الخبر «إحذروا أهوائكم كما تحذرون أعدائكم»[1]، فليس هناك عدوٌ للمرء أكثر من نفسه، ومن جملة ما أشار إليه الشيخ الرئيس ابن سينا في معرض الحديث عن زهد وعبادة العارف قال: "تنبيه ـ الزهد عند غير العارف معاملة ما، كأنه يشتري بمتاع الدنيا، متاع الآخرة، وعند العارف تنزه ما، عمّا يشغل سره عن الحق، وتكبر على كل شيء غير الحق، والعبادة عند غير العارف معاملة ما، كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة، هي الأجر والثواب، وعند العارف رياضة ما، لجهة، وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليجرها بالتعويد عن جناب الغرور، إلى جناب الحق، فتصير مسالمة للسر الباطن[2]... إلى آخر كلامه..

وإلى جانب الآداب المعهودة هناك آداب أخرى ينبغي أن تتوغل في سلوك العارف كي يعِدّ نفسه بصيرورة كل تلك الصفات ملكات، لا بل أن تصير متحدة معه من غير تكلف أو تصنّع، وأن يتحلى بها بحيث لا تفارقه أبداً (يقول الشيخ الرئيس في النمط السابع من كتابه (الإشارات): العارف شجاع كيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت، وجواد كيف لا وهو بمعزل

---

(١) مختصر جامع المعارف والأحكام، ص٢٨٨، ج١، باب اتباع الهوى.
(٢) الإشارات والتنبيهات، ص٥٩، القسم الرابع في التصوف.

عن محبة الباطل، وصفاح كيف لا ونفسه أكبر من أن تجرحها زلة بشر، ونسّاءٌ للأحقاد كيف لا وذكره مشغول بالحق تبارك وتعالى)[1].

ومن جملة هذه الصفات أيضاً ما يلي:

أولاً: الإرادة:

وهي محاولة (حجب النفس عن مراداتها والإقبال على أوامر الله تعالى)[2] وتوجيهها إلى ما ينفعها بالبعد عن الميول النفسانية التي تتحرك في داخل الإنسان بين الفينة والأخرى، وهي شرط أساس لإستقرار الملكات والأحوال في وجوده، وهي التي تُثمر الوجود الحقيقي وتُثمر الحث على ذكر الله تعالى في جميع الأحوال، والإلتزام بالآداب الشرعية بلا معارض.

واعلم أن كل درجة من هذه الدرجات قبل الوصول إليها فهي ناقصة بالقياس إليها.

فلو كان العبد متحلياً بصفة الزهد فهو في عالم النقصان والإحتياج إلى ما فوقه من الكمالات والصفات والمنازل

---

(١) الإشارات والتنبيهات، ص٥٩، القسم الرابع في التصوف.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص٢٠.

الخبر «إحذروا أهوائكم كما تحذرون أعدائكم»[1]، فليس هناك عدوٌ للمرء أكثر من نفسه، ومن جملة ما أشار إليه الشيخ الرئيس ابن سينا في معرض الحديث عن زهد وعبادة العارف قال: "تنبيه ـ الزهد عند غير العارف معاملة ما، كأنه يشتري بمتاع الدنيا، متاع الآخرة، وعند العارف تنزه ما، عمّا يشغل سره عن الحق، وتكبر على كل شيء غير الحق، والعبادة عند غير العارف معاملة ما، كأنه يعمل في الدنيا لأجرة يأخذها في الآخرة، هي الأجر والثواب، وعند العارف رياضة ما، لجهة، وقوى نفسه المتوهمة والمتخيلة ليجرها بالتعويد عن جناب الغرور، إلى جناب الحق، فتصير مسالمة للسر الباطن[2]... إلى آخر كلامه..

وإلى جانب الآداب المعهودة هناك آداب أخرى ينبغي أن تتوغل في سلوك العارف كي يعِدّ نفسه بصيرورة كل تلك الصفات ملكات، لا بل أن تصير متحدة معه من غير تكلف أو تصنّع، وأن يتحلى بها بحيث لا تفارقه أبداً (يقول الشيخ الرئيس في النمط السابع من كتابه (الإشارات): العارف شجاع كيف لا وهو بمعزل عن تقية الموت، وجواد كيف لا وهو بمعزل

---

(١) مختصر جامع المعارف والأحكام، ص٢٨٨، ج١، باب اتباع الهوى.
(٢) الإشارات والتنبيهات، ص٥٩، القسم الرابع في التصوف.

الأخرى. وإن جميع عباداته مرهونة بإرادته فما لم تكن هناك إرادة كاملة لم تكن هناك عبادة كاملة، فإنها لو لم تحصل لما كانت هناك عبادة أو ربما تكون ناقصة، باعتبار انّ هناك إرادة باعثة على العمل مع توق العبد لها فتبعثه بشكل كامل وأخرى غير باعثة إليه بشكل كامل فتكون ناقصة في مدى نسبة البعث عندها لدى العبد فيقوم إلى الصلاة متكاسلاً أو ناعساً، أو متخاملاً، لا يدري ماذا يفعل وما الذي يُراعيه في صلاته من السنن والآداب، ربما يصلي ويُنهي صلاته وإذا جاء سائلٌ وسأله ماذا كنت تفعل لا يدري ما يجيبه، و ليس هذا إلا لأنه كان غائباً عن مقام الحضرة الإلهية ومنغمساً في عالم المادة والطبيعة المتناقض مع عالم الملكوت.

ثانياً: التفكّر

قال علماء الأخلاق في تعريفه بأنه عبارة: عن تصرف القلب[1] في معاني الأشياء لدرك المطلوب.

وقد أمر الله تعالى بالتفكر في مواضع عديدة لا تحصى كثرةً، فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ

---

(١) وللقلب تعريفات كثيرة: فإذا عرّف عند الأطباء وعامّة الناس، كان المراد منه تلك القطعة من اللحم الصنوبرية الشكل، وعند الحكماء يطلق على بعض مقامات النفس، وله عند أصحاب العرفان مقامات ومراتب. (الأربعون حديثا، ص٢٣٣ــ ٢٣٤، التفكر، بتصرف).

هَذَا بَاطِلاً ﴾[1].

فالمقصود من التفكر هنا هو التفكر في خلق الله عز وجل لا التفكر في ذات الله لأنه قد ورد عندنا في جملةٍ من الروايات أنّ التفكر في ذات الله من الأمور التي لا يقدر عليها الإنسان.

وعن الإمام علي بن أبي طالب﵇، أنه قال: «جُمع الخير في ثلاث خصال: النظر والسكوت والكلام. فكل نظر ليس فيه اعتبار فهو سهو، وكل سكوت ليس فيه فكر فهو غفلة، وكل كلام ليس فيه ذكر فهو لغو، فطوبى لمن كان نظره عبراً، وسكوته فكراً وكلامه ذكراً، وبكى على خطيئته، وآمن الناس شرّه»[2].

يقول الشاعر:

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة[3]

طريق التفكر وآثاره المترتبة عليه:

قال رسول الله﵇: «أعطوا أعينكم حظها من العبادة، فقالوا يا رسول الله: وما حظها من العبادة؟ قال: النظر في المصحف والتفكر فيه والإعتبار عند عجائبه، قال تعالى ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ

---

(١) سورة آل عمران: الآية١٩١.
(٢) مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، ص١٧٧.
(٣) تنبيه الخواطر، ج١، ص٢٥٠.

القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾»[1].

وقد روي أن لقمان الحكيم كان يُطيل الجلوس وحده وكان يمرُّ به مولاه فيقول: يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك، فيقول لقمان: إن طول الوحدة أفهم للفكرة وطول الفكرة دليل على طريق الجنة، وهذا طريق كل عارف يريد الوصول إليه[2].

وقال وهب ابن منبه: (ما طالت فكرة إمرءٍ قط إلا علم، وما علم إمرءٌ قط إلا عمل)[3].

وقال آخر: (لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله)[4].

وكان بعضهم يمشي وإذا جلس يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا فلان:(قال فكرت في ذهاب عمري وقلة عملي وإقتراب أجلي)[5]. وهذه هي الأمور التي ينبغي للإنسان أن يتفكر فيها.

وقال آخر: (الفكر في الدنيا حجابٌ عن الآخرة، والتفكر في الآخرة يوجب الحكمة، ويحي القلوب)[6].

---

(١) المحجة البيضاء، ج٨، ص١٩٥.
(٢) تنبيه الخواطر، ج١، ص٢٥١.
(٣) المصدر السابق.
(٤) المصدر السابق.
(٥) المصدر السابق.
(٦) تنبيه الخواطر، ج١، ص٢٥١.

وقال آخر: (استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الإستنباط بالفكر)[1].

حقاً إن من أراد بلوغ مقام التفكر لا بد له وأن يتمم الشروط ـ الأنفة الذكر ـ حتى يقدر على إستيعاب المنازل التالية ـ التي تأتي بعد التفكر ـ فعليه أن يجد نفسه وذاته، بأن يُعرض عن الملذات الدنيوية والشهوات الجسدية التي تعرضه لأن يبتعد عن التفكر فيكون عالقاً في الغفلة مع الشيطان، ويصيّر نفسه كالمرآة، وهذا ما أشار إليه الإمام سيد العارفين ومولى المتقين أمير المؤمنين عليه السلام عندما قال في وصفه لأولئك المتفكرين والعاملين بالإعراض عن الدنيا قال: «حتى صارت نفوسهم كمرائي مجلوة، حوذى بها شطر الحقائق الإلهية فتحلت وإنتقشت بها».

المعنى: أنهم عبارة عن مرآة والذي يريدون الوصول إليه هو معرفة الحقائق الإلهية وبلوغها، وهذا هو هدفهم ومرامهم فتنتقش وتتجلى هذه الحقائق الإلهية في تلك المرآة أي في أنفسهم.

ولذا قيل: «المؤمن مرآة أخيه المؤمن» فإن الذي يريد بلوغ مرامه الأصلي وتحصيل الكمال المطلوب، لا بد وأن يوجِد

---

(١) المصدر السابق.

الرغبة في نفسه من عشق كل ما يتعلق بالله سبحانه وتعالى، من هنا كان بعض الواصلين يقول: (ما يصدر من المحبوب محبوب) لا أن يعترض العبد ويتعالى على حكمة ومشيئة الله جلّ وعلا، ويوافق نفسه في كل ما تريد، فإذا كان متعلقاً بالله تعالى عندها يجد طعم الحلاوة الإيمانية والعرفانية في روحه فيرى الله قبل كل شيء، وبعد كل شيء - وفي كل شيء، ومع كل شيء، كما كان سيّده أمير المؤمنين عليه السلام الذي كان يقول: «ما رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده وفيه ومعه».

وقال أيضاً: «لو كُشف لي الغطاء لما ازددت يقيناً»[1] وهذا هو الإخلاص الرباني، فبهذا الإستغراق في مقام الجلال الإلهي، والعظمة الإلهية وترك الدنيا الخسيسة الفانية الخداعة الغرّارة التي لا يهتدي إليها سوى المغفلّين فقط، ولا يروم مقصدها إلا العاملين في محاربة الله سبحانه وتعالى (أي محاربة أحكامه وحدوده وأوليائه)، يمكن أن تطوى الطريق للسالك فينال مراده.

فإذا كان الإنسان كما كان الإمام علي ابن أبي طالب عليه السلام الذي كان يقول: «ما لعليٍ والدنيا، ما لعليٍ ولذة تفنى ونعيم لا

---

(١) نهج البلاغة، ٢٥٣/٧.

يبقى»، إذا ترك الإنسان هذه الأمور، ولم يتعرض لها وصل إلى العرفان الحقيقي فيكون من مخلصي التوحيد الحقيقي، وهذا هو الجهاد الأكبر، قال الله عز وجل في كتابه المجيد: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. وقد جاء في ذكر أوصاف سيد العارفين أمير المؤمنين عليه السلام بأنه كان طويل الفكرة، كثير العبرة.

وإن في التفكر ما يُنجي الإنسان من النار، كما نجى الحر بن يزيد الرياحي بتفكر ساعة، ولو كان قد تعبّد سنة لم تكن عبادته تنفعه مع ما كان عليه ولكن تفكر ساعة نفعه ونجّاه، ولذا جُعِل تفكر ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنة[2]، وقد ورد: «إن أفضل العبادة التفكر في الله تعالى وفي قدرته»[3].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام، وهو يتحدث عن كيفية التفكر، قال: «إعتبر بما مضى من الدنيا، هل بقي عليها أحد، هل أحد فيها باقٍ من الشريف والوضيع والغني والفقير والولي والعدو، فكذلك ما لم يأت منها بما مضى أشبه من الماء بالماء»[4]، فإذا تفكر الإنسان وعمل يهون عليه الوصول إلى

---

(١) سورة العنكبوت: الآية٦٩.
(٢) الأربعون حديثاً، في بيان فضيلة التفكر، ص٢٣٥.
(٣) أصول الكافي، ٢/٥٥، ج٣. والبحار، ج٧١، ص٣٢١.
(٤) مصباح الشريعة، ص١١٣.

الكمال المنشود.

وإن من أفضل العبادة ذكر الموت، لذا يقول رسول الله ﷺ: «وكفى بالموت واعظاً»[1]، وأفضل التفكر فكر الموت ولذا جاء في جامع الأخبار عن النبي ﷺ أنه قال «أفضل الزهد في الدنيا ذكر الموت، وأفضل العبادة ذكر الموت وأفضل التفكر ذكر الموت، فمن أثقله ذكر الموت وجدّ قبره روضة من رياض الجنة»[2].

ولقد أجاد من قال: إن التفكر سراج القلب يرى به خيّره وشرّه ومنافعه ومضاره، وكل قلب لا تفكر فيه فهو في ظلمات يتخبط، ظلمات شديدة بعضها فوق بعض.

أما طريق الوصول إلى هذا المنزل بأن يفتش الإنسان نفسه في كل صباح ومساء، ويفكر فيما تعرض له من الموبقات والجرائر فلا يتعرّض لها، ويحترز عما وقع فيه من الممازحة والمماكسة والكذب والغيبة والبهتان إلى غير ذلك من الأحوال المبغوضة والمكروهة عند الباري عز وجل، والتي يتعلق بعضها بالحرمة ونحن لا نعلم، ثمّ يفكر في كل عضوٍ من أعضائه، في سمعه وبصره وعمله في كل هذه الأمور، وكلٌ بالنظر إلى ما

---

(١) مصباح الشريعة، ص١١٣.
(٢) جامع الأخبار، ص١٦٥.

فوقه، فمن كان قاطعاً لنصف الطريق فإن الإبتداء له مكروه ويُمكن أن يكون عليه حرام، فينبغي أن ينظر إلى مَن فوقه ليتشبث به، ويستغني بكافة الأدوية المفيدة للسيطرة على ما يمكن أن يقف أمامه ويخلخل عمله، ويضيّع أجره، ويحجب فكره، ومن هذه العلاجات:

١ـ التفكّر والتدبر في القرآن الكريم، قال الله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١].

٢ـ أن يخضع للنص الذي ورد عن الرسول والأئمةﷺ في الحث على التفكر الصحيح بالله وخلقه تعالى. ونحو ذلك.

٣ـ العزلة: لذلك جاء في الحديث أن معروف الكرخي قال للإمام الصادقﷺ:« أوصني يا بن رسول الله»، فقال له الإمامﷺ: «أقلل معارفك»، قال له: «زدني»، فقال له الإمامﷺ: «أنكر من عرفت منهم»، قال: «زدني، قال: حسبك»[٢].

وإن أهل البيتﷺ كانوا يتشددون في هذه المسألة لأنها الطريق إلى بلوغ الكمال الحقيقي وإلى بلوغ مقام التوكل على الله سبحانه وتعالى والتفكر بعظمته.

---

(١) سورة محمّد: الآية٢٤.
(٢) المستدرك، ج١١، ص٣٨٧، ح٥١.

وهناك أيضاً حديث آخر عن بعض الصادقين أنه قال: «لولا الموضع الذي وضعني الله فيه لسرني أن أكون على رأس جبلٍ لا أعرف الناس ولا يعرفوني حتى يأتيني الموت»[1]، لأن القرب من الناس يعتبر أكبر شاغل عن الله سبحانه وتعالى إذا كان خالياً من المصلحة الأخروية.

فالمقصود من العزلة لا أن يمتنع الإنسان عن رؤية من يُفكر في مصلحته الأخروية، فيزري عليه فيما لو صدر منه أي عيب، ويُخلص له في الباطن ويُعرفه عيوبه، فإن هذه الصفات إذا كانت موجودة في أي شخص يُمكننا معاشرته، بل هو المطلوب منه تحقيقاً.

إن العزلة والإنفراد إذاً أن لا يُجالس إلا صالحاً مؤمناً يُنكر علينا فعالنا وما إجترحناه من الذنوب والمعاصي، من هنا قيل «المؤمن مرآة أخيه المؤمن».

ثمّ إن البواعث على التفكر كثيرة جداً أختصر ذلك بحديث الإمام الصادق عليه السلام حينما قال: «لا راحة لمؤمن على الحقيقة إلا عند لقاء الله وما سوى ذلك ففي أربعة أشياء: صمتٌ تعرف به حال قلبك ونفسك فيما يكون بينك وبين باريك، وخلوة تنجو

---

(١) شبر، عبد الله، الأخلاق ص١٢٠.

بها من آفات الزمان ظاهراً وباطناً، وجوع تميت به الشهوات والوساوس وسهرٌ تنوّر به قلبك وتنقي به طبعك وتزكي به روحك»[1]. فهذه أيضاً من الأمور المساعدة على التفكر في الله سبحانه وتعالى، فإن الصمت ميراث الحكمة وهو باعثٌ على التفكر، والخلوة تجعل العبد متفكراً في عيوبه وذنوبه فيُعرض عنها، والجوع يرث العلم، وقد جاء في الحديث «الجوع سحاب الحكمة فإذا جاع العبد مُطِرَ بالحكم». وهو أيضاً يورث الإخلاص وقد جاء في الحديث الشريف عن النبيﷺ أنه قال: «من أخلص لله أربعين صباحاً جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه».

وقد يكون التفكر في آيات الله سبحانه، قال تعالى ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

وهذا التفكر هو الذي يبعث على معرفة الله سبحانه وتعالى، لكي يصبح الإنسان عارفاً بطبيعة حاله، وأخرى يمكن أن يكون

---

(١) مصباح الشريعة، ص١١٥.
(٢) سورة آل عمران: الآية١٩١.

التفكر في نعم الله سبحانه وتعالى والشكر على نِعمه الذي يكون نابعاً من التفكر، فهو أساس لهذا الأمر، ويمكن أن يكون التفكر في العبادة الروحية، وقد ورد في وصيّة النبيﷺ لأبي ذر الغفاري، يا أبا ذر «ركعتان مقتصدتان في تفكر خيرٌ من قيام ليلة والقلب ساه»[1].

٤- التفكر في النفس:

كما ورد عن الحسن الصيقلي قال: سألت أبا عبد اللهعليه السلام عما يروي الناس أن تفكر ساعة خير من قيام ليلة، قلت كيف يتفكر؟ قال: «يمر بالخربة أو الدار فيقول أين ساكنوك أين بانوك، مالك لا تتكلمين»[2]. وفي المرويّ عن أمير المؤمنينعليه السلام أنه قال: «واعلموا عباد الله أنكم وما أنتم فيه من هذه الدنيا على سبيلٍ قد مضى قبلكم ممن كان أطول منكم أعمارا، وأعمر ديارا وأبعد آثارا أصبحت أصواتهم هامدة ورياحهم راكدة وأجسادهم بالية وديارهم خالية وآثارهم عافية فاستبدلوا بالقصور المشيدة والنمارق الممهدة الصخور والأحجار المسندة والقبور اللاطئة المُلحدة التي قد بني بالخراب فنائها وشيّد بالتراب بنائها فمحلها مقترب وساكنها مغترب بين أهل محلة

---

(١) البحار، ج٧٧، ص٨٢.
(٢) تفسير البرهان، ج١، ص٣٣١.

موحشين وأهل فراغ متشاغلين لا يستأنسون بالأوطان ولا يتواصلون تواصل الجيران على ما بينهم من قرب الجيران ودنو الدار وكيف يكون بينهم تزاور وقد طعنهم بكلكله البلا وأكلتهم الجنائل والثرى... [1]». وقال الصادق عليه السلام: كان أمير المؤمنين عليه السلام يقول: «نبّه بالتفكر قلبك حتى لا يسوء، وجافي عن الليل ساجداً ـ في بعض الروايات جنبك ـ واتقي الله ربك[2]».

ومن المصاديق التي وردت في التفكر بالله سبحانه وتعالى هو فيما روي عن ابن عمر، قال: قلت لعائشة أخبريني بأعجب ما رأيتِ من رسول الله صلى الله عليه وآله، فبكت وأطالت بالبكاء، ثم قالت: كل أمره عجب أتاني في ليلتي فدخل في لحافي حتى ألصق جلده بجلدي، ثم قال لي: «يا عائشة، هل لي أن تأذني لي الليلة في عبادة ربي»، قلت: يا رسول الله: إني لأحب قربك، وأحب مرادك، فقد أذنت لك، تقول عائشة: فقام إلى قربةٍ من الماء في البيت، فتوضأ ولم يُكثر من صبِّ الماء ثم قام يصلي فقرأ من القرآن، ثم رفع يديه فجعل يبكي، حتى رأيتُ دموعه قد بلّت الأرض، فأتاه بلال يؤذنه بصلاة الغداة ثم رآه يبكي، فقال له: أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، قال يا

---

(١) نهج البلاغة، ص٤٧٥ـ ٤٧٦، رقم الخطبة ٢٢٦.
(٢) تفسير البرهان، ١/ ٣٣١.

بلال: «أفلا أكون عبداً شكوراً»، ثم قال: «ما بي لا أبكي وقد أنزل الله في هذه الليلة ﴿**إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار...**﴾» - إلى آخر الآية - ثم قال: «ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها»، وروي أيضاً: «ويلٌ لمن لاكها بين فكيه ولم يتأمل فيها»[1]. في الحقيقة أنّه من قرأ القرآن الكريم من دون تأمّل يُصبح محلاً للعنة، كما جاء في الحديث «كم قارئ للقرآن والقرآن يلعنه» فعدم التفكر والتدبر والتأمل في آيات الله تعالى بعمق لا يمكن أن يجلب للإنسان سوى البعد عنه عزّ وجل، و روي عن حبّة العَرني قال: بينما أنا ونوف نائمين في رحبة القصر إذ نحن بأمير المؤمنين عليه السلام في بقية من الليل واضعاً يده على الحائط شبيه الواله وهو يقول: «إن في خلق السموات والأرض...» ثم قال: ثم جعل يقرأ هذه الآيات ويمر شبه الطائر عقله، فقال لي: «أراقدٌ أنت يا حبة أم رامق» قال: قلت: رامق، إذا أنت تعمل هذا العمل، فكيف نحن يا أمير المؤمنين، فأرعن أمير المؤمنين عليه السلام عينيه فبكى، ثم قال لي: «يا حبة إن لله موقفاً ولنا بين يديه موقفاً لا يخفى عليه شيئاً من أعمالنا، يا حبة إن الله أقرب إلي وإليك من حبل الوريد، يا حبة إنه لن يحجبني

---

(١) التفسير الكبير للرازي، ٩/ ١٣٣ ــ ١٣٤.

ولا إياك عن الله شيء»، ثم قال: «أراقد أنت يا نوف»، قال: لا يا أمير المؤمنين، ما أنا براقد، ولقد أطلت بكائي هذه الليلة، فقال له عليه السلام: «يا نوف إن طال بُكائك في هذا الليل مخافة من الله تعالى قرّت عيناك غداً بين يدي الله عز وجل»[1].

٥ـ إدامة التفكر والنظر في الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام.

«رحم الله امرأ أعدّ لنفسه واستعدّ لربه، وعلم من أين، وفي أين، وإلى أين»، فالتفكر هو حياة القلب، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «عليكم بالفكر فإنه حياة قلب البصير ومفاتيح أبواب الحكمة»[2].

والتفكر هو من الأصول المهمة لتعظيم الله تعالى، وبه تظهر الذلّة والعبودية بالافتقار المحض أمام العزة الربوبيّة، وتظهر علامات الشوق والانفتاح القلبي وهو محل التجليات الإلهية والشهود وإدراك التوحيد الربوبي[3].

---

(١) البحار، ج٤١، ص٢٢.
(٢) البحار، ٧٥/١١٥، باب١٩، ح١٢.
(٣) عارف في الرحاب القدسية، الحداد، ص٢٠٥.

الفصل الثالث

التذكر

من الأمور التي يمكن للعبد أن يستعين بها لكي يتوصل ويصل إلى حضرة الباري جلّ وعلا في طريق تهذيب نفسه لنيل كمالاته، هو التذكر.

وهو عبارة عن تذكّر جميع ما أنعم الله تعالى عليك من لطفه وكرمه، والغرض من الإشارة إلى هذا المقام أشياء عديدة منها:

تعظيم الخالق بنظر المخلوق:

وهذا ما سنتطرق إليه مفصلاً ولكن قبل ذلك نريد أن نستغرق قليلاً في معنى التذكر وعلاقته بالتفكر والفرق بينهما.

قيل: أن التذكر فوق التفكر، لأن التفكر يكون عند إحتجاب القلب بصفات النفس، أي أن الصفات الرذيلة عندما تكون منطبعة في نفس الإنسان فالتفكر يكون مقدمة لإزالة مثل هذه الموانع، سواء كانت هذه الموانع داخلية أم خارجية، فيلتمس الإنسان البصيرة المطلوبة لذلك التذكر يكون عند رفع الحجاب وخلوص خلاصة الإنسانية من قشور صفات النفس والرجوع إلى الفطرة الأولى، فيتذكر الإنسان ما انطبع فيها من الأزل من التوحيد والمعارف بعد النسيان بسبب التلبد بغواشي النشأة وقد

يكون التذكر للمعاني التي حصلت بالتفكر بعد نسيانها[1]، هذا ما ذكره الكاشاني في شرحه على كتاب (منازل السائرين)، لكن أريد أن أشير إلى تعليق موجز وبسيط على هذا الكلام فأقول:.

أولاً: إن إختصاص الفوقية لصفة التذكر على التفكر، يتطلب في أن يكون التذكر طريق إلى التفكر، وإلا إذا لم نقل أن التذكر هو طريق إلى التفكر، لا يمكن أن نقول التفكر فوق التذكر بأي حالٍ من الأحوال، وهذا ما لم يتعرض إليه أحدٌ من العلماء.

ثانياً: أنه لا يشترط في أن يكون هناك موانع داخلية أو خارجية لكي يغدو الإنسان متفكراً ويحصل على هذا المقام وإن كان الشيخ الكاشاني قد أشار إلى جانب واحد مما يفسر هذا الموضوع، فحتى يتسم العبد بهذه الصفة باعتبارها صفة كمالية توصل إلى حضرة الباري لا بدّ وأن يكون مهذباً لنفسه صائناً لها محافظاً عليها ومن هنا يمكن أن يحصل على هذا المقام، وإلا فإن طريقه صعب مستصعب.

ثالثاً: لا شبهة في أن العبد إذا لم يكن متذكراً يكون محجوباً ويكون ناسياً ولكنه ربما لا يكون عاصياً لله تعالى فلا يصح

---

(١) منازل السائرين، ص٤٦، باب التذكر.

وسمه بالعاصي ولا يمكن رفع الحجاب هذا إلا بالعمل المترتب على التفكر لا غير.

وعلى أية حال ـ يمكن أن نقول كما قال الشيخ لكن من باب أنّ أحدهما يدعو إلى الآخر، فإن التفكر يورث التذكر لما نسيه ذلك العبد المسكين بسبب الذنوب والمعاصي، كما أن التذكر يورث الإنتباه واليقظة، ومن هنا يدعو إلى مزيد من التفكر فيما عرضت الإشارة إليه وهو تعظيم الخالق بنظر المخلوق هذا أحد مصاديق التذكر المترتب على العبد الذي قد حاز على كثير من المواهب الربانية والنعم التي وهبه الله تعالى إياها، ومعنى ذلك أن يعظم الإنسان الله تبارك وتعالى بعد أن أنعم عليه بالنعم الوافرة والهدايا السّنية والمواهب الجلية والعظمة الربانية، ولذا كان شكر المنعم من أوجب الواجبات، وهو ما تقتضيه جبلة الإنسان وطبيعته وفطرته فصار لزاماً عليك أن تُقدّر عطاؤه تعالى مهما بلغ هذا العطاء بصورة إجمالية أولاً، وثانياً أن تقدر المعطي بذاته على ما أفاض عليك من تلك التوفيقات والبركات والعنايات ولكن مهما وصل العبد في مقام التقدير والتعظيم لن يستطيع أن يهب الله الحق الأوفر والأقدر والأليق في تقديره، وتعظيمه ولذا ورد في الآية الكريمة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ

قَدْرِهِ﴾[1] لاحظ مثلاً، إذا أنقذك طبيبٌ ما من المرض فأنت تعظمه وتحترمه وإذا أنقذك من الموت كان تقديرك واحترامك له أكثر.

فماذا تقول في كل تلك النعم الظاهرة والباطنة التي تفضّل بها عليك مالك الملوك وجبار الجبابرة لذا فإن التصور الذي يجب أن يكون حاصلاً لديك من خلال شفائك وعلاجك وإنقاذك من الموت هو أن تعتبر أن الذي حقق لك مطلوبك من الشفاء والنجاة من الموت هو الله تبارك وتعالى ولكنه هيأ وسيلة هي عبارة عن الطبيب الكذائي أو زيد الفلاني، لا أن تقول إن الذي نجاني وشفاني وأعطاني وتفضل عليّ هو فلان وفلان كما هو متداول بين المتدينين فضلاً عن غيرهم، وهذا المسكين إن لم يصح عنده هذا الإعتبار فقد وقع في الشرك الخفي الذي هو أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء ـ أي الملساء ـ في الليلة الظلماء. وقد سُئل الإمام الصادق عليه السلام عن تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُشْرِكُونَ﴾[2] فقال الإمام عليه السلام في مقام الجواب: «هو الرجل يقول: لولا فلان لهلكت»[3].

---

(١) من سورة الزمر: الآية١٦٧.
(٢) سورة يوسف: الآية١٠٦.
(٣) تفسير القمي.

ولكن عندما يمر العبد بقطار التذكر سوف يجد أن المعطي هو الله والمنجي هو الله والمضحك والمبكي والرافع والدافع والمعطي والمانع والشافي والواهب هو الله وحده لا شريك له.

يجب أن لا نغفل عن هذه الحقيقة ويجب أن نعلم بأنه لو لم تكن كل هذه المنح الربانية هي مواهب وعطايا لنا دون إستفادة وإرادة من قبل الله تعالى من خلقه واحتياجه لهم، لما قال في كتابه المجيد ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الغَنِيُّ الحَمِيدُ﴾، فانظر إلى المساواة الموجودة عند الله سبحانه وتعالى لدى جميع خلقه لم يفرق بين الأسود والأبيض ولم يفرق بين العربي والأعجمي وبين الصغير والكبير وبين الذكر والأنثى وكيف نعت جميع مخلوقاته بالفقر والإحتياج الدائم إليه، هذا يُشير إلى أن صاحب الملك الحقيقي هو الله كما أشار إلى ذلك في آخر الآية الكريمة وأن كل الموجودات هي بحاجة مطلقة إليه عز وجل والملك الدنيوي لا يُقدر عنده بشيء فهو عنده شيء زائل فانٍ كما قال في سورة الرحمن ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ وَالإِكْرَامِ* فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ﴾[1].

أيضاً من الأمور التي تقرها فطرة الإنسان هي إحترام العظيم من البشر والكبير منهم وهذا الإحترام والتقدير إنما يكون ناشئاً من إمتلاكه لبعض حُطام الدنيا وما أشارت إليه الآية الكريمة الأولى تفسر حال الناس بصورة كاملة كما ذكرت آنفاً في الإستواء، من هنا كان التعظيم متوجهاً لله سبحانه وتعالى فقط لا غير،لا أن يكون التعظيم لأولئك السلاطين والملوك الدنيويين الغارقين في الفتن والممتلئين بالكبر على الله وعلى خلقه، ولكن المصيبة العظمى تقع على عاتق الأبرياء من الناس عندما يُحقرون أنفسهم أمام السلطان الجائر بالتذلل والتودد له، ويبدون ما كانوا يُخفون أمامه، وهذه المعاملة إنما يجب أن تكون مع الله ولله سبحانه وتعالى لأن بيده أن يحطم كل هذه الدنيا بما فيها ومن عليها، من أولئك السلاطين والملوك الدنيويين. فعلى هذا عندما يجد العبد نفسه ويكون على مستوى من المعرفة تخوله لأن يتجه إلى الذات الإلهية في التعظيم والشكر والتقدير، لا يمكن أن يقع في حبائل الشيطان، فيتوجه حينئذٍ إلى القبلة الحقيقية حنيفاً مسلماً لا يُشرك مع ربه أحد من مخلوقاته التي لا تقي حراً ولا برداً، ولا يمكن لها أن تدفع عن نفسها المرض

---

(١) تفسير القمي.

والرهان، فهم في عالم الملك وحضرة القدس والجبروت وفي أرض الله يعيشون ومن نعمه يأخذون، ومن طعامه يأكلون، ومن شرابه يشربون، ولم يفرق بين أحدٍ من عباده، بل أوصى بهم أنبيائه وأوليائه وأوصيائه وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «الخلق كلهم عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله»[1] ولذلك قال عز وجل: ﴿كُلاًّ نُمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً﴾[2].

ما هو هذا الإمداد العظيم من الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء حتى المؤمن والكافر، وأي عظمة هذه التي حيرت الألباب والعقول في إدراك كُنه أصغر عوالمه المسماة بالدنيا الوضيعة الحقيرة الزائلة الفانية التي تُعتبر من أضيق النشآت وأصغر العوالم، بل ولم يطلع كبار المكتشفين إلى حدّ الآن من العالم على أسرار المنظومة الشمسية هذه، وهي أصغر المنظمات قياساً بباقي الشموس.

نعم، يجب إحترام هذا القادر العظيم والمانح الكريم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[3]، وقال أيضاً عز من قال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ

---

(١) الكافي، ج٢، ص١٩٢.
(٢) سورة الإسراء: الآية٢٠.
(٣) سورة ق: الآية٣٧.

فَنَسِيَ﴾[1]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾[2].

وهناك نقطة أريد الإشارة إليها ألا وهي أن الذكر والتذكر من بعضهما فهذا عنوان وذاك عنوان ولكن يمكن أن نستفيد من كلاهما نفس الموضوع مع إختلاف بسيط في المصداق. فلقد عرفنا التذكر ولكن لم نعرف الذكر، الذكر هو عبارة عن الخروج عن ذكر ما سوى الله بالنسيان عن غيره، وهو أحد متفرعات التذكر الذي يعني تذكر إفاضات الحضرة الإلهية الجلالية العظيمة وحضور الواجبات والعقائد المنسية لدى العبد فيكون التذكر أعم من الذكر، والذكر أخص منه.

وإن السبب في شروق النور الباعث على اليقظة والتذكر هو محو الأمراض الروحية والقلبية المؤدية إلى حجب الإنسان عما يجب تذكره، كالرذائل الأخلاقية ليقتلعها من جذورها حتى لا يكون وجودها يُغلق بوجه الإنسان نوافذ النور وتورثه الأمراض المُهلكة، والقسوة الكبيرة، هذه الأسباب الرئيسية الأساسية التي تحول بين العارف وذكر ماضي أفعاله وأحواله فإن القلب إذا لم يتطهر فسوف يسوق العبد إلى وادي المهالك لأنه إمام الأعضاء والجوارح، كما ورد في بعض الأحاديث

---

(١) سورة طه: الآية١١٥.
(٢) سورة فاطر: الآية٣٧.

الشريفة عن أهل البيت عليهم السلام.

ورد في كتاب (الدعاء) من الكافي، فيما ناجى الله تعالى به نبيه موسى عليه السلام فإن نسياني يميت القلب[1]، نعم، إنّ نسيان الله عز وجل يبعث على قساوة القلب.

و في عدم التزكية آثار سلبية تحصل للإنسان من الفشل في رفع الموانع الظاهرية والباطنية، التي تكون طريقاً لإستعمال الأمور والفضائل الأخلاقية فعندها يكون العبد محجوباً عن التذكر، واعلم أن الإنابة شرط لحصول التذكر كما قال الله تعالى في كتابه الكريم ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلاَّ مَن يُنِيبُ﴾[2] إن هذه الإنابة لا تأتي إلا بعد التوبة لأن التوبة تقتضي المحاسبة والمراقبة والمشارطة حتى يشتغل العبد برفع الموانع والسدود أمامه وإزالة العقبات التي تكون مبعثرة في الطريق المؤدية إلى حضرة الجلالة والقدس الإلهيين.

والإنابة كما يقول الشيخ الكاشاني في شرحه لكتاب منازل السائرين: لا تكون إلا بصفاء الفطرة الموجب للتذكر، والتذكر لا يكون إلا لذي اللب الخالص عن قشر غواشي النشأة[3].

---

(١) تفسير القمي.
(٢) سورة غافر: الآية١٣.
(٣) منازل السائرين، ص٤٦، باب التذكر.

قال الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿إنّ في ذلك لذكرى لأولي الألباب﴾[1].

ومن الأمور التي تعتبر من أبنية التذكر كثيرة لا تحصى:

١ـ تذكر الله لطرد الشيطان:

فإن لم يتذكر الإنسان ربه فإنه بطبيعة الحال يكون النسيان حاصلاً عنده، وإن هذا النسيان يورث وجود أمور تسيطر عليه في حال التخلي عن ذكر الله عز وجل فعليه أن يلجأ إلى ذكر الله تعالى حال مس الشيطان له فضلاً عن بقية أحواله، وإليه أشارت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾[2]. فالتذكر إذاً من مورثات العلم، والبصيرة، فعند محاولة الوقوع في الحرام يأتي التذكر فينتشل العبد من مأزق الإبتلاء به فيكون حاجزاً عن درك المعاصي، وقد ورد في الحديث عن الأصبغ بن نباتة قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «الذكر ذكران، ذكر الله عز وجل عند المصيبة، وذكر الله تعالى عند المعصية» فلو مات قريب لك وذهب إلى قبره فعلمك بالتحاقه عما قريب يجعلك تتذكر وحدتك ووحشتك التي تسيطر عليك غداً في حفرتك فتبادر

---

(١) الكافي، ج٢، ص٣٦١.
(٢) سورة الأعراف: الآية٧.

إلى العلم والعمل ويصير ذهاب أي حبيب من أحبائك أو أي أحد من الناس دليلاً لك على سرعة اللقاء مع الله والورود عليه ﷺ. ثم قال ﷺ: وأفضل من ذلك ذكر الله تعالى عند ما حرم الله عليك فيكون حاجزاً[1]، وهذا مما لا شك فيه فبمجرد أن تذكر الله عند محاولة قيامك واجتراحك ـ لا سمح الله ـ لبعض الموبقات تسرع تلقائياً إلى الإعراض عن ذلك الحرام فيكون تذكرك لله سبباً للحجز عن المعصية والوقوع في الحرام وذكر الله أيضاً يقتضي بأن تتذكر آياته الكريمة: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ والتي تضمنت مسائل كثيرة من الخوف والوعيد مثل قوله تعالى ﴿ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2] وقوله: ﴿مَا عَلَى المُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾[3] وقوله: ﴿يعذّب من يشاء﴾[4] وقوله: ﴿ومأواهم جهنم﴾[5]. فالمطلوب أن تتأثر النفس بمجرد سماعها للوعيد والوعد فتنفعل من الوعد بالرجاء الباعث على الإجتهاد في العمل لتحصيل الموجود من الوعيد بالخوف الباعث على التقوى بالنظر في تلك الآيات المتضمنة لها مثل قوله تعالى ﴿هدىً للمتقين﴾[6]، ﴿إن المتقين

---

(١) الكافي، ج٢، ص٨٧.
(٢) سورة يونس: الآية٦٢.
(٣) سورة التوبة: الآية٩١.
(٤) سورة العنكبوت: الآية٢١.
(٥) سورة التحريم: الآية٩.
(٦) سورة البقرة: الآية٢.

في جنات النعيم﴾[1]، ﴿وتزودوا فإن خير الزاد التقوى﴾[2] ونحو ذلك من الآيات.

فعندما يتذكر الإنسان هذه الآيات يحصل لديه زخم قوي في الرغبة من أجل بلوغ تلك الجنان العليا، ويتذكر الله تعالى فيمتثل أوامره ويهمل زواجره ليكون في طريق الصالحين بفعل التذكر.

ولا شكّ بأن الشيطان له علاقة مع كلّ من غفل عن الله تعالى، وقد جاء في كتاب الخصال عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ولمّا دعا نوح ربّه على قومه أتاه إبليس، فقال له: يا نوح، إن لك عندي يداً أريد أن أكافئك عليها. فقال نوح: والله إنّي لبغيض إليّ أن يكون لي عندك يد، فما هي؟

فقال النبي، دعوت الله على قومِك فأغرقهم، فلم يبقَ أحدٌ أغويه، فأنا مستريح حتى ينشأ قرنٌ آخر فأغويهم، فقال له نوح: فما الذي تريد أن تكافئني به؟

قال له نوح: أذكرني في ثلاث مواطن فإني أقرب ما أكون إلى العبد، إذا كان في إحداهنّ، اذكرني عند غضبك، واذكرني إذا حكمت بين اثنين، واذكرني إذا كنت مع امرأة خالياً ليس

---

(١) سورة الطور: الآية١٧.
(٢) سورة البقرة: الآية١٩٧.

معكما أحد»[1].

فإنّ تذكر الله في هذه المواطن تحديداً وفي كل مكان أيضاً يوجب طرد الشيطان اللعين عن ساحة الأعمال، ويؤكد في النفس العلاقة مع الله في جميع الحالات.

فالحذر كل الحذر خصوصاً في مثل هذه المواطن وأن يحاول الإنسان أن لا يقع في أشياء يفتح على نفسه من خلالها أبواباً للشيطان يصعب غلقها.

وفي إخبار النبي موسى عليه السلام بما خاطبه ربّ العزّة والكبرياء منادياً «يا موسى، إذا ذكرتني فاذكرني وأنت تبغُضُ أعضاءك، وكن عند ذكري خاشعاً مطمئناً، وإذا ذكرتني فاجعل لسانك من وراء قلبك، وإذا قمت بين يدي فقم قيام العبد الذليل وناجني بقلب وجل، ولسان صادق»[2]..

ومن الموارد الأخرى التي تساعد على القرب الإلهي:

٢ـ تذكر أحوال الماضين من الأموات:

ينبغي على العاقل أن يعتبر من أولئك الذين مضوا إلى قبورهم ولم يعمروا في هذه الدنيا سوى أيام معدودات مثل

---

(١) الخصال، ١٣٢/١، الباب الثالث، ح١٤٠.
(٢) جامع السعادات، ٣٢٧/٣.

بلعم ابن باعور وفرعون وقارون وهامان والملوك والسلاطين الذين أصبحوا رهائن قبورهم بعد أن أصبحت عظامهم رخيصة. فقد عمروا في الدنيا أكثر منا، فأين ذهبوا وأين حلوا، وفي أي أرض استقروا، فقد اتخذوا من الدنيا أحوالاً وأعواناً، فأخرجوا منها وزودوا من متاعها أكفاناً، ولم يجدوا من خوفها أماناً.

يقول بعض علماء الأخلاق[1]: أين الغضاة الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم، أين الملوك الذين بنوا المدائن وحصنوها ضعضع بهم الدهر فأصبحوا في ظلمات القبور،الوحى الوحى، ثم النجى النجى.

وأنشد بعضهم:

جرت الرياح على محل ديارهم

فكأنهم كانوا على ميعاد

أقاموا في بطون الأرض بعد ظهورها وسكنوا في قبورها بعد قصورها في مضاجع الهلكات راقدين وفي بلاقع الفلوات خامدين فيا عجباً لمن يخرب أيام عمره وهو يعمر داراً ويا رحمتاه لمن أيقن بحلول الموت به وهو يلذ قراراً[2].

---

(١) تنبيه الخواطر، ج١، ص٢٧٥.

(٢) محاسبة النفس، الكفعمي.

وما الدنيا بباقية لحيّ ولا حي على الدنيا بباقِ

وقالت عائشة: يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال:«نعم، من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة، لأن ذكر الموت يوجب التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار السرور والإستعداد للموت قبل حلول الفوت ويميت الشهوات في النفس، والمؤمن ميتةُ شهوته، ويقلع منابت الغفلة ويقوي القلب بمواعد الله ويكسر أعلام الهوى ويطفئ نار الحرص ويحقّر الدنيا، والغفلة عن الموت تدعو إلى الإنهماك في شهوات الدنيا ونسيان الآخرة»[1].

فينبغي للعاقل أن يفرغ نفسه للتفكر في طريق الخلاص من الهلكة فيتحرى سبل النجاة في أفعال الخير والتوبة والندم على الذنوب والعزم على ترك العود إليها والصبر على بلاء الله والرضا بقضاء الله[2].

قال النبيﷺ: «أذكروا هادم اللذات» قيل يا رسول الله: وما هادم اللذات، قالﷺ: «الموت، ما ذكره عبد على الحقيقة إلا ضاقت عليه الدنيا، ولا في شدة إلا اتسعت عليه، والموت أول منزل من منازل الآخرة وآخر منزل من منازل الدنيا فطوبى لمن

---

(١) المستدرك، ج٢، ص.
(٢) أعلام الدين، ص١٠٩.

أكرم عند النزول بأولها وطوبى لمن أحسن مشايعته في آخرها والموت أقرب الأشياء من بني آدم وهو يعده أبعد فما أجرى الإنسان على نفسه وما أضعفه من خلق وفي الموت نجاة المخلص وهلاك المجرمين ولذلك اشتاق من اشتاق الموت وكره من كره»[1].

وهل الدهر إلا أياماً معدودات فلماذا يستعيض الإنسان بذكر ربه وتذكر نفسه بغرس بذور الشرور في ذاته لتلقى فيما بعد للويلات والبلاءات والمصائب التي لا يطيق تحملها.

فيجب أن تتذكر غدك ويوم نزولك في قبرك وخروجك منه عارياً ذليلاً تحمل الأثقال على ظهرك لتقف بين يدي الله تعالى للحساب، فتنشر كتباً وتتطاير رؤوساً حقاً إنه ليوم عظيم كما وصفه بذلك الرب العظيم.

قيل لبعض الزهاد ما أبلغ العظات، قال: النظر إلى محلة الأموات ووجد مكتوباً على قبر (قهرنا ثم قهرنا ثم صرنا للناظرين عبر)[2]، وقال بعضهم: «يا ابن آدم لو رأيت يسير ما بقي من أجلك لزهدت في طويل ما ترجو من أملك ولرغبت في الزيادة من عملك ولقصرت في حرصك وحيلك، وإنما

---

(١) مصباح الشريعة، ص١٧٢.
(٢) نور الحقيقة ونور الحديقة، ص٢٨٤.

يلقاق بغتة وقد زلت لك قدمك وأسلمك أهلك وتبرئ منك القريب وانصرف عنك الحبيب»[1]. وحكي أن سليمان بن عبد الملك نظر في المرآة وقال: أنا ملك شاب، فقالت جارية له:

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى غير أن لا بقاء للإنسان
ليس فيما بدا لنا منك عيبٌ قد علمناه غير أنك فانٍ

وكتب رجل إلى صالح بن عبد القدوس قال:

الموت باب وكل الناس يدخله
يا ليت شعري بعد الباب ما الدار

فأجابه:

الدار جنة عدن إن عملت
بما يرضي الإله وإن خالفت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما فانظر لنفسك أي الدارين تختار

وسمع بعضهم بكاء على ميت فقال: العجب من قوم مسافرين يبكون على مسافر قد بلغ منزله[2].

٣- الإنتفاع بالموعظة:

والغرض من ذلك تهذيب النفس بنيل كمالاتها العلوية وشدّ

---

(١) نور الحقيقة ونور الحديقة، ص٢٨٣.
(٢) نور الحقيقة ونور الحديقة، ص٢٤.

الهمم في الإتعاظ بالحكم وهو أفضل طريق لبلوغ المقامات الرفيعة، وإن أكثر بناء العلماء معتمد على هذا الأمر فهو واسطة رفيعة بين الإنسان وتذكر ما هو عليه وفيه فتارة يكون العبد غارقاً في الظلمات الشديدة فتأتي الموعظة من الواعظ وتخرجه منها، وتارة يكون ناسياً لبعض الأمور فنأخذ بيده بفعل الموعظة فنخرجه من العمى والضلال وهذا لا بد أن يبتني على المبالغة في التحذير بالآيات القرآنية والروايات الشريفة الواردة في المقام ليكون التأثير حاصلاً بسبب الموعظة وإلا لن تترتب أية نتيجة على العزم ثمّ إنه إذا لم يكن الالتفات متوجهاً إلى نفس المواعظ أيضاً فلن نحصل على النتيجة.

يقول الشاعر:

إسمع مقالي ولا تنظر إلى عملي

ينفعك عملي ولا يضرك تقصيري[1]

وكتب علماؤنا الأبرار رضوان الله تعالى عليهم كتباً مليئة بالمواعظ والعبر، فعلى العبد أن يأخذ زمام أمره في المطالعة المثمرة للعبر والمواعظ لعله يتذكر أو يخشى.

واعلم أن الحجب الباطنية تمنع من حصول التأثر والله تعالى

---

(١) منازل السائرين، ص٤٧.

يشير إلى هذه الحقيقة بقوله ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ﴾[1] أو ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[2] أو ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾[3] أو ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾[4] فأصحاب الأمراض القلبية بما أن القسوة والغلظة وحب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة يسيطر عليهم، فلا يمكن الوصول بتلك المواعظ إلى عقولهم وقلوبهم إلا بعد إزالة تلك الأشواك والشفاء من المرض حتى تصل العبر إليهم فيعتبروا والمواعظ فيتعظوا، والحكم فيتعلموا، والله تعالى يقول: ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾.

وإن للموعظة موارد كثيرة كالإتعاظ بالأموات والقبور وتذكرها والإيقاظ بالعلم ونحو ذلك، وقد وجد مكتوباً على قبر: من أمّل البقاء، وقد رأى مصارعنا فهو مغرور[5]. فإن الإنسان إن لم يتذكر هذه الأحوال فإنه لا محالة يغرق في كثير من المحرمات من الغرور وما شابه ذلك. يقول بعض العلماء:

---

(١) سورة البقرة: الآية١٨.
(٢) سورة البقرة: الآية١٩.
(٣) سورة البقرة: الآية٧٤.
(٤) سورة الفرقان الآية٤٤.
(٥) نور الحقيقة ونور الحديقة، ص٢٨٤.

لنا من كل ميت عظة بحاله وعبرة بمآله[1]، وقد قال الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ الذِّكْرَى* سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَى * وَيَتَجَنَّبُهَا الأَشْقَى﴾[2] وقال أيضاً: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

إن النظر في أحوال الأنبياء والأئمة عليهم السلام يدل دلالة واضحة على ما نصير إليه، فإن الدنيا وإن طالت قصيرة، والراحل للمقيم عبرة، والميت للحي عظة. وجاء أيضاً أن جبرائيل عليه السلام قال لنوح عليه السلام: «يا أطول الأنبياء عمراً كيف وجدت الدنيا ؟» فقال له: «كدار لها بابان دخلت من أحدهما وخرجت من الآخر»[4]، هذه المواقف إنما تحصل للإنسان بفعل التذكر واستبصار العبرة وهو يتم بثلاثة أشياء: حياة العقل ومعرفة الأيام و(السلامة) من الأغراض الدنيوية، وقد جاء في شرح الشيخ الكاشاني لعبارات الخواجة الأنصاري، قال: استبصار العبرة تحققها وشدة تبصرها بنور الحقيقة ولا يحصل ذلك إلا بحياة العقل، فإن حياة العقل قوة إدراكه وحدّه فهمه، وتمييزه المنافع والمضار والمحاسن والمقابح بتجرّده وصفائه، وإذا لم يقو

---

(١) نور الحقيقة ونور الحديقة، ص٢٨٢.
(٢) سورة الأعلى: الآيات٩ــ ١١.
(٣) سورة الذاريات: الآية٥٥.
(٤) تنبيه الخواطر، ج١، ص١٢٨.

الإدراك لم يصح الإستبصار، وإذا لم يُميز المنافع من المضار لم ينتفع بالعبر وقد جرب القوم أنّ الإكثار من ذكر (يا حي يا قيوم يا من لا إله إلا أنت) يوجب حياة العقل. وأما معرفة الأيام فقد مر بيانها في باب اليقظة وحاصلها هاهنا أن يعتبر زيادة العمل الصالح ونقصانه في أيام عمره وفجور نفسه وتقواها ويتذكر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1] فلا يضيع أيامه ويصرفها في تزكية نفسه بالزهد والعبادة والسير إلى الله بالتحلي بالأخلاق الحسنة وتبديل أوصافه السيئة بالحسنة والسلامة من الأغراض الدنيوية، والسلامة إنما تكون بإخلاص العمل لوجه الله والبراءة من الرياء والنفاق وسائر أغراض الدنيا فإنها تميت العقل وتزيل ملكة الإستفسار بالعبر[2].

٤- العلم:

إن تذكر العلم يعتبر الدافع الأهم نحو التفكر والتذكر، وقد قال الله تعالى في كتابه المجيد: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾[3]. وإن كل المنازل والمقامات التي نحن بصدد بيانها لا يمكن حصولها إلا بالعلم النافع، وكلما

---

(١) سورة الشمس: الآية٩ــ ١٠.
(٢) منازل السائرين، ص٤٨.
(٣) سورة المجادلة: الآية١١.

كبر الإنسان من غير أن يتعلم كلما نقص تفكره وازداد نسيانه، لذا فعليه زيادة التشديد على نفسه في جميع أحواله. وأن يهتم اهتماماً بالغاً في تحصيل ونيل المراحل العليا من الأخلاق الكريمة قبل أن يستولي عليه الشيب ويذهب العمر ويأتيه الموت الذي لا بد منه.

قال بعض الشعراء:

تقارب الخطو ونقص في البصر
وقلة الطعم إذا الزاد حضر
وقلة النوم إذا الليل اعتكر
وكثرة النسيان فيما يُذكر
وتركي الحسناء في قبل الطهر
والناس يبلون كما يبلى الشجر

وإن أكثر موارد النسيان تكمن في الذنوب والمعاصي لذا سأل أحد الطلبة أستاذه، قال له: بماذا أستعين على الحفظ، فقال: بترك الذنوب والمعاصي. إن ترك الذنوب والمعاصي يجعل العلم على أكمل وجه.

وأنشد بعضهم يقول:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وقـــال إن العلـــم فضـــلٌ وفضل الله لا يؤتاه عـاصي[1]

وجاء في حديث المعراج: يا أحمد إن العبد إذا جاع بطنه وحفظ لسانه علّمته الحكمة وإن كان كافراً تكون حكمته وبالاً عليه.

فالجوع يميت الشهوات ويُصفي النفس ويجعلها كالدر الصافي ويعطي القوة والنشاط والحيوية فيصبح الإنسان قريباً من درك الفضائل واجتناب الرذائل حتى أن بعضهم كان يتأذى من المكروهات حينما يرتكبها، لهذا السبب فإن الشبع يهيج الشهوات في النفس ويدير محركات القوى الشهوانية الحيوانية لتنتج أفعالاً حيوانية، كما نشاهد ذلك عند البعض من عدم تمكنهم من أكل وجبتين في النهار فإنه لا يستطيع أن ينام في الليل من جوعه فيما لو لم يدرك ثلاث وجبات من الطعام ومن هنا تبدأ عند الإنسان مرحلة الغرق في المهابط السُفلى فيقع فيما حرّم الله عليه من تأثير أكله وشربه المفرط، وربما يكون هذا الطعام مشتبهاً أو مخلوطاً بين الحلال والحرام، فيؤسس قساوة القلب وينبت الزرع اليابس المتعذر قطعه.

حتى أن الإستهلاك في هذه الشهوات الدنيوية والملذات الحيوانية يُحرِم الإنسان من التفكر في منقلبه ومثواه فيتعين عليه

---

(١) منية المريد، ص١٠١.

الحرمان من شم رائحة الجنة والأكل من طعامها والزواج من حور عينها. فعلى العاقل اللبيب أن يُجد السير وإن كان شاقاً للتحضير ليوم الملتقى وعلى غيره من الشيبة أن يُجد ويتهيأ لرحيله عن هذه الدنيا وأنشد بعض أهل العلم قائلاً :

ألا فاجهد لنفسك قبل الموت فإن الشيب تمهيد الحمام
وقد جد الرحيل فكن مُجداً بخط الرحيل في دار المقام

العلم يُثمر العبر والفكر وتركه يصيب الإنسان حالات كثيرة، وربما يتصور بعض الذي لم ينهل العلم من المنبع الأصلي، أن معارفه ناشئة من العلم الحقيقي ولكنها في حقيقة الأمر تكون ناشئة من الشك والوهم والظن الذي لا يغني من الحق شيئا. ففي ترك مثل هذا العلم مما يجعل الإنسان مكدور الذات بعيداً عن صفاء القلب الذي هو إمام الأعضاء والجوارح، وكل هدفنا من هذه المقامات هو نيل رضا الباري جل وعلا، وأن نُحقّر الدنيا بأعيننا حتى لا يصيبنا شيء منها كما أراد الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿والراسخون في العلم يقولون

(١) سورة الزمر: الآية٩.

آمنا﴾[1].

والهدف من العلم هو الإنتفاع وجني الأفكار والمعلومات المتصلة بالله ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾، وهذا العلم يجب أن يكون متصلاً لا منفصلاً بحيث يتذكر به قبره وآخرته وربه ويعمل لأجل تدارك ما أراد الله تداركه وأن يبتعد عن الجهل. قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا داء أعيا من الجهل.

يقول الخواجة الأنصاري[2]: وإنما تجتنى ثمرة التذكر بثلاثة أشياء: قصر الأمل والتأمل في القرآن، وقلة الخليطة مع الناس، والتمني والتعلق، والشبع والمنام.

وقال الفيض الكاشاني في شرحه على ذلك: إنما تجتنى ثمرة التفكر في مقام التذكر لأن التذكر أعلى من التفكر وقد سبق أن تصحيح كل مقام إنما يكون في مقام أعلى منه ليطلع عليه من فوقه فيدرك ما فاته من بقاياه فيه، فذكر أن أسباب الإجتناء ثلاثة:

الأول: قصر الأمل باسقتراب الأجل، فإن من استقرب أجله زهد في الدنيا وآثر الآخرة، واجتهد في تحصيل السعادة

---

(١) سورة آل عمران: الآية٧.
(٢) منازل السائرين، ص٤٨.

الآجلة، وتذكر الموت وأحب لقاء الله وترك زخارف الدنيا، وعلم أن العاقبة للتقوى وذلك من ثمرات التفكر.

الثاني: التأمل في القرآن الكريم ومواعظه وزواجره، وأحكام الإعتبار بقصصه وأمثاله، وامتثال أوامره والإجتناب عن حدوده ومحارمه، فإنه تنور القلب وتذكر الموت وتحصل ثمرات الفكر من المعارف والحكم.

الثالث: التقليل من خمسة أشياء:

أولها: إختلاط الخلق فإنه يُشغل عن الحق ويذهل عن الموت فليحذر بالكلية عن صحبة أبناء الدنيا وليقصر على صحبة الصالحين الزاهدين فيها والعلماء العرفاء المحققين المذكرين للحق ولقائه، فإن في صحبتهم بركة ورحمة وهدىً وموعظة للمتقين، فإن لم يجد فعليه بالعزلة والإنزواء.

ثانيها: التمني فإنه من مواعيد الشيطان وكله كذب وزور وتوهم وغرور يُنسي الحق تعالى ويسول الباطل ويجعل الفكر وسواساً.

ثالثها: التعلق بما سوى الله، فإنه شرك ومن انجذب إلى الغير بعُد عن الحقّ واستحقّ اللعن والطرد.

رابعها: الشبع، فإنه يهيج الشهوات ويغلب البطر والأشر

ويكل الإدراك والنظر ويسد طرق الفهم والإلهام ويصرف وساوس الشيطان والأوهام.

خامسها: المنام، وهو يُكسِل عن الطاعة ويكدر الحواس ويحبّب إلى النفس البطالة ويورث النسيان ويميت قلب الإنسان وينكسه إلى مراتب سائر الحيوان.

واعلم أن الجوع ينفي هذه الرذائل كلها من النفس. لأنه يقل النوم ويمل عن الحق ويضيق مداخل الشيطان ويصقل القلب فيرى مكائده ويسد بالتذكر باب التمني ويقطع العلائق ويهجر الباطل باجتلاء نور الحقّ فليقتصر الطالب على الحقوق ويترك الخطوط والله تعالى أعلم[1].

---

(١) منازل السائرين، ص٤٨.

الفصل الرابع

العزم

هـل مـن سـبيلٍ للتلاقـي فلقـد طـال اشـتياقي
وسـقاني البَـيْنُ كأسـاً بعضـها مـرُّ المـذاقِ
ودمـوعي فـوق خـدّي في انكبـاب وانـدفاق[1]

العشق لله تعالى هو أمر فطري وإن البعض ليتأجج نور العشق عندهم بشكل كبير جداً، فيذكرون الله تعالى في كل ساعاتهم وفي جميع أحوالهم، وبعض العباد يكون العشق عندهم مدفون في قلوبهم وهم لا يعرفونه، لذلك ورد عن النمط الأول من العباد قول أمير المؤمنين عليه السلام: «أرواحهم معلقة بالمحل الأعلى» أي تراهم يمشون بين الناس فترى أجسادهم لكن أرواحهم عند الله سبحانه وتعالى لا لأنهم أموات ولكنهم أماتوا أنفسهم بأنفسهم فكانوا مع الله تعالى في جميع أحوالهم. وذلك عندما يكونون في السوق وعند الباعة يعملون أو يشترون وما إلى هنالك، هذا إنما يتم الحصول عليه من خلال هجران بيت النفس المظلم إلى كعبة الحقيقة والمنزل الحقيقي، والذي يتطلب من العبد لاستكمال هذا الطريق ومتابعته على أكمل

(١) ترجمات ثرية لأشعار فارسية.

وجه أن يكون لديه عزم راسخ وهمة عالية لان السالك إلى الله تعالى والسائر بقدم العشق نحو القرب الإلهي حيث يراد فيه أن يخطو في سفره نحو الله ليصل إلى مقام الحضرة الإلهية لزم اعتماده على قوة العزم عنده لنيل الكمالات والمراتب العليا والنورانية، والسفر الصوري كما أنه يُحتاج فيه إلى الإعتماد والإتكال على بعض الأمور المادية كتهيئة الزاد والراحلة، فبطريق أولى وبعد التسليم بأولوية السفر المعنوى على الصوري المادي أن يكون التوكل على الله هو الركن الأساس لذلك العبد عند استعمال العزم.

من هنا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1] وجاء في تعريف العزم، وكلام علماء الأخلاق بأنه أول الشروع في الحركة والفعل.

وقال الشيخ الخواجة الأنصاري: العزم هو تحقيق القصد طوعاً أو كرهاً. وقالوا بأن المكره لا قصد له لأنه لم يكن ناوياً للفعل إلا أن يراد بالكره كراهة وهو أن ينجذب القلب نحو عمل وفعل من الأفعال، فيأتي طوعاً وينجذب إليه قصداً وعمداً وفي النفس كراهة له[2].

---

(١) من سورة آل عمران: الآية١٥٩.
(٢)منازل السائرين، ص١٥١.

يقول أستاذ الإمام الخميني الشاه آبادي: (إن العزم هو جوهر الإنسانية ومعياره ميزة الإنسان، وإن درجات الإنسان باختلاف درجات عزمه)[1].

فيا أيها العزيز، فالآن ولك الفرصة والعمر الذي هو رأس مالك الوحيد، وطريق العزم إلى الله مفتوح، والسبل أمامك موجودة وأبواب الرحمة الإلهية مفتوحة، وقوة الأعضاء مستقرة، فاصرف همتك واعزم على تحصيل التقوى والفوز بالدرجات السلوكية السامية لتصار القوى الظاهرية والباطنية في خدمة الحق تعالى، فعندها تتجلى الأنوار القدسية في ساحة القلب عندك، وتمتلئ نفسك بالحالة النورانية الإيمانية الرفيعة لتجد طعم الإيمان وحلاوته، فبدّل هذه الأرض المظلمة إلى أرض نورانية، ونظف أوساخ نفسك وروحك حتى تشرق بنور الحق والجلالة: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ﴾[2]، ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[3]، ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ﴾[4]. فإن الإندفاع بكدحك وجهدك وعدم الركون إلى الغير من أهم السبل لنيل العزم والنجاح فيه،

---

(١) الأربعون حديثا، ص٣٤.
(٢) سورة إبراهيم: الآية٤٨.
(٣) سورة الزمر: الآية٦٩.
(٤) سورة الإنشقاق: الآية٦.

وإن طبيعة الأرض أو النفس عندك تتبدل وتتنور بنور الرب وتنعدم عندها الظلمات فلا تشعر بأية ظلمة وأية مشقة وأي تعب وأي نوع من أنواع الوحشة والظلمة والذلة والعذاب.

فالعزم كل العزم والمبادرة كل المبادرة للرجوع إلى الله والذات الحقيقية وتحصيل القرب الإلهي وإزاحة حجاب الطبيعة عن عقلك وقلبك الذي يكون باعثاً على الغفلة والنسيان عن عينك الذي يورثك الهمة الناقصة من العزم في جميع أمورك.

أيها الإنسان قاوم الدنيا وكل متعلقاتها وحطامها وركامها حتى تحقق المطلوب من مقصودك وتزيل الأغشية عن بصيرتك، لترى بقلبك وإيمانك محبوبك ومعشوقك الأوحد وهو الله تبارك وتعالى. ولكي لا تعيش في حياتك محجوباً عن ربك فإن الحجاب هذا يرسلك إلى العيش في الظلمات ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ اليَوْمَ تُنسَى﴾[1].

إن السالك إلى الله تعالى والذي يريد الوصول إلى الحضرة

---

(١) سورة طه: الآيات ١٢٤ــ ١٢٦.

الجبروتية ومشاهدة الحق بنور القلب والوصول إلى حقيقة الإيمان والتزكية، لا بد وأن يصرف همه في تحصيل الملكات التي تساعده على بلوغ مقام العزم والتوكل على الله تعالى، وإلى كل العبادات الموجهة لنا من قبل الله عز وجل في كثير من آياته الكريمة وأحاديثه القدسية من الذكر والدعاء ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]، ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2] والتهجد في الليل ولقد كان فيما ناجى الله به موسى بن عمران عليه السلام أنه قال له: «يا ابن عمران كذب من زعم أنه يحبني فإذا جنّه الليل نام عني، أليس كل محبٍ يحب خلوة حبيبه» ها أنا يا ابن عمران مطلع على أحبائي إذا جنّهم الليل حولت أبصارهم في قلوبهم، ومثلت عقوبتي بين أعينهم، يخاطبوني عن المشاهدة، ويكلموني عن الحضور، يا ابن عمران هب لي من قلبك الخشوع ومن بدنك الخضوع ومن عينيك الدموع وادعني في ظلم الليل فإنك تجدني قريباً مجيباً[3]. إن مثل العبادات والطاعات إن لم يكن مبدؤها العزم فإن إمكانها يكون ممتنعاً لا محالة، وهذا العزم تارة يكون من أجل الحصول على الدنيا وملذاتها وشهواتها ومتعلقاتها كالمأكل والملبس والمسكن والمنكح، لذلك فإن الذي

---

(١) سورة البقرة: الآية١٥٢.
(٢) سورة غافر: الآية٦٠.
(٣) وسائل الشيعة، ج٧، باب استحباب الدعاء في الليل.

لا يحصل على هذه الأمور فإنه يعتبر نفسه محروماً منها، من هنا تجده يسعى لتحصيلها ليلهُ ونهاره، وتارة يكون عزم العبد متعلقاً بالآخرة ولكن لأجل منفعته الطبيعية والطبعية، أي أن هذا الإنسان يريد الوصول إلى الله تعالى ولكن لنيل جنته. يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك إنما وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك»[1] هذه عبادة العاشقين والعارفين، غير عبادة الذي يسعى في تحصيل الجنان العليا، وإن درجات المؤمنين تتفاوت بحسب اختلاف درجات إيمانهم، وإستطراداً أذكر ما روى السيد الطهراني عن أستاذه العارف السيد هاشم الحداد قائلاً: كان سماحة السيد الحداد يقول: أرى الناس في جميع المشاهد المشرفة يلصقون أنفسهم بالضريح ويضرعون باكين بالدعاء، فيقولون: أضف خرقة على خرق لباسنا المهترئ ليصبح أثقل، وليس هناك من يقول: خذ هذه الخرقة عني لتخفف كاهلي وليصبح ردائي أبسط وألطف وأرق[2].

فعلى هذا النسق ينبغي أن تكون المعاملة بمعنى الفناء في الخالق بدوام النظر إليه.

---

(١) بحار الأنوار، ج٤١، ح١٤، باب١٠١.
(٢) الروح المجرّد، ص٢٧٠.

وخذ عبرة من سيد الشهداء عليه السلام عندما عزم على الشهادة لتحقيق الوصال مع الله والإستراحة من هذه الدنيا، كان يقول عليه السلام مخاطباً ربه: «خذ حتى ترضى»، وكذلك بقية إخوته وأهل بيته سلام الله عليهم أجمعين.

ما أجمل أن يعزم المرء على العطاء والمحبة لله عزّ وجلّ، كي تهون الصعاب ويتحول العالم بأسره في نظره إلى محبة وعطاء.

فأما أخته زينب عليها السلام جلست عند رأسه وضعته في حجرها بينما كان هو يجود بنفسه وقالت: «اللهم تقبل منا هذا القربان».

فعُمدة بناء الدرجة الثالثة من العزم هذه ترتبط برضا الله تبارك وتعالى.

ولقد كان الإمام الحسين عليه السلام يقول في مناجاته:

رضاك رضاك لا جنات عدنٍ ... وهل عدنٍ تطيب بلا رضاك

ويُنقل عن أحد الشعراء:

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب

ويا ليت الّذي بيني وبينك عامرٌ ... وبيني وبين العالمين خراب

فالعزم في الرضا هو أحسن طريق لنيل السعادة في الدنيا والآخرة، وكان أمير المؤمنين عليه السلام يقول:

رضيت بما قسم الله لي وفوضت أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقي[1]

لذا فإن المطلوب في العزم بالرضا أن يُلجأ الإنسان نفسه في الأمور كلها إلى الله تعالى، واعلم أنك إذا لجأت في أمورك كلها إلى إلهك فإنك تلجأها إلى كهف حصين ومانع قوي، ويجب أن يبذل الإنسان نفسه في هذا السبيل وهذا الطريق، وهذا هو الذي يحقق الإخلاص في السر والعلانية والخشية في الغيب والشهادة والقصد في الفقر والغنى والعدل والرضا والسخط.

لكن المأساة الكبرى حينما يسوء عزم الإنسان فيبتلي بالبعد عن الله فيتوجه إلى غيره تعالى عن علم أو غير علم. قال علي عليه السلام: «لا تعزم ما لم تستبين الرشد فيه»[2]. وقال أيضاً: «من ساء عزمه رجع عليه سهمه»[3].

ولذلك فإن عمل العباد يجب أن يكون مبنياً على العزم الصحيح غير الفاسد، ثم لا بد بعد ذلك من إماتة الشهوات وإزالة الحجب التي تحول بين الصحيح والفاسد منه، وأن تكون الآخرة همه الوحيد ويكون عزمه متوجهاً إليها وأن يعرف الداء الدنيا ليتجنبها فما من عبد اقترب من الدنيا إلا

---

(١) مصباح الشريعة.
(٢) غرر الحكم.
(٣) المصدر السابق.

وزاده اقترابه منها بعداً عن الله بقدر إقترابه منها.

إنّ صاحب هذا المقام تجب عليه أشياء كثيرة من اللجوء إلى الله تعالى في جميع الأحوال وترك الدنيا، وقد عرفت كيف كان أهل البيت عليهم السلام يعاملونها، فهي الداء الوبيل والمرض المهلك للإنسان فيما لو لم يتركها ويتخلص من رذائلها وإن كثيراً ممن سلك هذا الطريق ولكنهم بمجرد أن عرضت عليهم الدنيا تركوا طريقهم إلى الله وانخرطوا في متاعها وحطامها وركامها.

فعلى العبد أن يميز بين عزمه وأن يكون رشيداً في اختياره حتى يصيب الهدف المطلوب المتوخى منه، وإن العارف والواصل إلى الله يتبرئ من كل علائق المادة ويختار لنفسه الطريق الصعب في السلوك نحو الله تعالى ويتحمل المحن والمصائب والإبتلاءات وكل ما يعرض عليه في هذا الطريق، كما كان علي عليه السلام حيث لم يكن ينم الليل والنهار قط حتى سأله خادمه: سيدي ومولاي لمَ لا أراك تنام ليلاً ولا نهاراً، فأجابه عليه السلام: «إن نمت ليلاً ضيعت نفسي، وإن نمت نهاراً ضيعت رعيتي». وقد سأل معاوية بن أبي سفيان بعض أصحاب الإمام علي عليه السلام عنه، قال له: أما كان ينام؟ فقال: لا والله ولكنه كان ينام حيث تأخذه السجدة، وكان متوكلاً على الله في جميع أموره وحركاته وسكناته فكان سلام الله عليه إذا أخذ في

الوضوء، يتغيّر لون وجهه من خيفة الله وكان عليه السلام إذا حضر وقت الصلاة يتزلزل ويتلون، فقيل له: مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول عليه السلام: «جاء وقت أمانة عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان».

وروي أنه وقع نصل في رجله عليه السلام، فلم يتمكّن أحد من إخراجه، فقالت فاطمة: «أخرجوه حال صلاته، فإنه لا يحسّ حينئذ بما يجري عليه»[1].

فأُخرج وهو في صلاته فلم يحسّ بشيء.

وهذا هو حال سيد العارفين ومولى المتقين عليه السلام الذي يمكنك من خلال اتباعه الحصول على القرب الإلهي. يقول الإمام الصادق عليه السلام: لولانا ما عُرف الله، ويقول أيضاً: «نحن وجه الله الذي منه يؤتى»، فقد كانوا متوكلين عليه في جميع أحوالهم وسائر أمورهم ومعتمدين عليه في حياتهم كلها. قال تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[2]. هذه هي حال هؤلاء العارفين الواصلين

---

(١) جامع السعادات، ١٢٨/٣.
(٢) سورة التوبة: الآية٥١.

فهم يعيشون في ظل الولاية العظمى والطريق المثلى المؤدية إلى الرضا الإلهي في الدنيا والآخرة فالإستعداد عندهم موجود لاستقبال العظمة الإلهية التي ترتبط بما يقولون: «اللهم أحينا ما دامت الحياة خيراً لنا وأمتنا إذا كان الممات خيراً لنا»، والخير هنا هو الوصال مع الله.

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[1].

إن أصحاب العزم مطيعون لمطلق أوامر الله ونواهيه بالتقوى الحاصلة لديهم، قال تعالى: ﴿..وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[2]. وأمثال هذه الآيات ونظائرها كثيرة في القران الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[3] وقال أيضاً: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاَةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾[4].

فإن القرآن الكريم مدح العزم في موارد عديدة من آياته وأشار بشكل أساسي إلى أنه يدرك العزم بالصبر وبين موارده

---

(١) سورة الأحقاف: الآية٣٥.
(٢) سورة آل عمران: الآية١٨٦.
(٣) سورة طه: الآية١١٥.
(٤) سورة لقمان: الآية١٧.

من إقامة الصلاة والأمر بالمعروف ونحو ذلك من الأمور.

فبمجرد أن يتدبر العبد في العواقب السيئة التي تلزمه أثناء تركه للعبادات، يحيل نفسه مباشرة إلى إيجادها في واقعه فيلتزم بمطلق واجبات الشريعة ثم يذهب بعدها ناظراً في آدابها ليصبح فيما بعد مرتفعاً إلى المقامات العليا من العبادات ليكون محصلاً لتلك الآداب والسنن الشريفة وهذا ما يدفعه تلقائياً إلى ترك المكروهات ويحركه إلى نفي المباحات عن ساحته أيضاً.

وساعتئذٍ ينسلخ عن عالم الطبيعة ليبني حياته على أساس التقوى والهدى، قال تعالى ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾[2].

ولا يخفى على العارف أن العزم على طلب العلوم الشرعية الشريفة هو من أفضل الطاعات وأتم القربات الربانية الإلهية وبه ينال الكمالات المنشودة والمقامات العالية المحمودة، ويحصل التقوى المرجوة لدى عباد الله حقاً فينكشف له حينئذٍ بالعلم طريق الإخلاص الحقيقي المتمثل بأخذ المعارف الحقة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام ليستحق وقتها الثناء والرضا من الله العزيز

---

(١) سورة التوبة: الآية١٠٩.
(٢) سورة الأحزاب: الآية٢١.

الحكيم.

وقبل العزم على طلب مثل هذه العلوم الشريفة هناك شرطٌ أساسي لا بد من التلميح له والإشارة إليه ألا وهو نية العبد لتحقيق القرب فهي الواسطة التي تأخذ بيده إلى تحصيل رجاه ومبتغاه عند مولاه. فالطالب الحقيقي هو الذي يجعل همته وعزمه لآخرته والإبتعاد عن الجرائر والموبقات هو رائده.

ومصاديق العزم لا تحصى كالتحول من الجفاء إلى القرب بالذكر وهذا لا بد فيه من الهمة العالية والعزم القوي واستشعار الجهل الدائم حتى يعزم على درك المطالب العلمية فيحصلها ويستوعبها استيعاباً تاماً، وطريقه إلى ذلك العمل وفق ما تقتضيه الروايات والآيات الشريفة.

وهذا يتطلب عزماً لدرك المأمول ونيل المقصود، أما الإنحراف عن هذا الطريق يكون سببه الأول هو التكاسل والتخامل ومعاشرة أهل الفساد من الناس، لذلك ينبغي على العاقل أن لا يعاشر سوى أهل الخير والورع والسبب الثاني هو عدم المروءة فإنه إن لم تقبل على ذوي المروات لا يمكن أن تعرف شرف الإيمان ولا أن تنتفع به، وإن صلاة الليل هي مفتاح العمل الصالح ومفتاح كل خير وكل سلوك نحو الله سبحانه وتعالى لأن هذا السفر يجب أن يكون مبنياً على هذه

العبادات. يقول العلاّمة الطباطبائي: عندما تشرفت بالذهاب إلى النجف الأشرف للدراسة، كنت من حين لآخر أزور المرحوم القاضي للقرابة والرحمية الموجودة بيننا، حتى جاء ذلك اليوم الذي كنت فيه واقفاً على باب المدرسة والتقيت به عابراً، فلمّا وصل إليّ وضع يده على كتفي وقال: «يا بني إذا كنت تريد الدنيا فعليك بصلاة الليل، وإذا كنت تريد الآخرة فعليك بصلاة الليل!»[1].

ولما يذكر العبد زوال كل لذة وانتقال كل نعمة وانكشاف كل بلية فإنه لا محالة يكون أقرب إلى الله وأبعد عن الدنيا فيعطيه الرب جل وعلا بهذا العزم على الذكر بقاء نعمته وينفي شهوته ويذهب بطره، فلكي يسلم من العواقب السيئة يلزم عليه أن يعزم على تطليق الدنيا التي فر منها عباد الله المقربين وأنبيائه الصالحين، ويمزق كل ما علق في باطنه وقلبه. وينبغي عليه أن يزيل حجاب حب الدنيا عن قلبه ونفسه وروحه ليكون الطريق أمامه مفتوحاً لنيل الكمالات الإلهية ويصبح متجهاً إلى الله داخلاً في حصنه وحصن أوليائه فيأتيه المدد الإلهي بعد ذلك من كل حدبٍ وصوب لينجيه من بلاءات الدنيا وعذابات الآخرة.

واعلم أنك إن لم تستيقظ من نومك في عالم الملك فإنك

---

(١) عارف في الرحاب القديم، ص١٠٤.

ستحشر يوم القيامة على هيأتك الحقيقية الباطنية وعلى هيئة تحسن عندها صورة القردة والخنازير. وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾[1]، ما يؤكد هذا الأمر لأن الآية ناظرة إلى المكلف باعتبار أنّ الله لم يكلف سوى الإنسان، فالمقصود من الآية الإشارة إلى عاقبته لاسيما عندما تنقضي عهود الله ومواثيق أوليائه فيكون قد ظلم الإنسان نفسه وأدى به فحشه وسوء عمله وتصرفه للبعد عن الله والوقوع في الهاوية وما أدراك ما هي، نار حامية، فيحشره الله على تلك الهيئة من الوحشية.

فهاجر أيها الإنسان إلى ربك واذكره لكي يذكرك غداً ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ وإنما يتحقق ذكرك له فيما لو عملت بما أوجب عليك من طاعته وانصرفت إلى عبادتك إياه في جميع أحوالك ليلك ونهارك، فكن على ثقة بأنك إن فعلت ذلك ستصار إلى ما لم تره عينك ولم يدركه عقلك ولم تسمعه أذنك ولم يخطر على قلبك. واعلم أن السبيل الوحيد للوصول إلى جنته هو استعمال العزم والإرادة، فقد جاء في صفة النبي الكريمﷺ صاحب الخلق العظيم، كما ورد عن عليؑ أنه قال وهو يصف النبي: « قائماً بأمرك مستوفزاً في مرضاتك غير ناكل

---

(١) سورة التكوير: الآية٥.

عن قدم ولا واهن عن عزم»[1]، وجاء أيضاً عن علي عليه السلام قال: «ولكن الله جعل رسله أولي قوة في عزائمهم وضعف فيما ترى الأعين من حالتهم»[2]. ويجب عليك الحث والإلحاح في الدعاء على الله تعالى بأن يوفقك ويسددك ويشملك بعنايته ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[3] حتى بلوغ المقامات والقربات وأن تكون مالكاً للعزم الذي يرضاه الله رب العالمين، لا أن تعزم على شيء لا يرضاه الله تعالى. قال الإمام علي عليه السلام: «ضادّوا التواني بالعزم»[4]، وقال أيضاً: «أصل الحزم العزم وثمرته الظفر ولا تجتمع عزيمة ووليمة، وما أنقض النوم لعزائم اليوم، وامحى الظلم لتذاكير الهمم»[5]. واستشفع بالنبي والأئمة ﴿وابتغوا إليه الوسيلة﴾. وقال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: «نحن والله الوسيلة».

وهم الصراط المستقيم والحبل المتين ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[6] والمقصود من الحبل الإمام وأبنائه عليهم السلام، وإن تولّيهم أفضل القربات الإلهية والمقامات العلوية ومن لم

---

(١) نهج البلاغة، خطبة٧٢.
(٢) نهج البلاغة، خطبة١٩٢.
(٣) سورة الحديد: الآية٤.
(٤) غرر الحكم.
(٥) شرح النهج، ج١١، ص١٤٢.
(٦) سورة آل عمران: الآية١٠٣.

يختم على صحيفة أعماله التي تعرض على الأئمة الحب والطاعة والولاية لهم فسوف تكون كل أعماله هباءاً منثوراً ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[1]. والعزم الصحيح يدعو إلى العمل المقبول المختوم بأصابع الولاية.

فإن التأكيد على هذا الأمر من قبل الله تعالى، كما أنه عزّ وجلّ جعله الحبل بينه وبين نبيه الذي وصفه في كتابه على درجة كبيرة من العظمة، وإذا لم يحقق النبي هذا الفعل من الإعتراف بولايتهم لا نقطع هذا الحبل بينه وبين الله عزّ وجل ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾[2]. فإذا كانت هذه العلاقة من خلال هذه المسألة تصل بين الله وأفضل عباده ومخلوقاته وهو النبي الأكرمﷺ إلى هذا الحد من التهديد والوعيد بالإنفصال والإنقطاع، فما بالك بنا نحن الغارقون في بحر الجهالة والضلالة وعدم اجتناب الرذيلة إن لم يكن الإعتماد عليهم هو العمدة، ماذا سيكون مصيرنا؟ وماذا تقول في كيفية الحساب الذي سنخضع له غداً يوم القيامة.

---

(١) سورة الفرقان: الآية٢٣.
(٢) سورة المائدة: الآية٦٧.

فاطلب (أيها العزيز) من الله في خلواتك ومناجاتك إعطاؤك الحظ الوافر من الهدى والرحمة لتفوز برضا الأئمة عليهم السلام.

وإنهم لا شك ولا ريب يوصلوك إلى مرادك، فلا تفسد عملك، وبع دنياك بآخرتك تسعد إنشاء الله، والسفر إلى الله والسلوك إليه يحتاج إلى صبر كبير، وتحمّل كل ما يرد عليك أثناء سيرك وسلوكك. فالعجل العجل في تحصيل هذه المقامات العظمية، فما ينفعك إلا موت النفس كما يقول الرسول صلى الله عليه وآله: «موتوا قبل أن تموتوا»[1]، ولم يتركونا هكذا بدون توجيه، فقد أهدونا إلى علومهم النيرة وأحاديثهم الشريفة الكثيرة وأعطونا النهج الواضح في العمل والسلوك نحو الله. فلا تضيع كلماتهم بإغماضك عنها، فإنها الموصلة إلى المنزل الحقيقي الذي هو غاية العارف القصوى، وانظر في كل مواعظهم.

يقول الإمام زين العابدين عليه السلام في بعض مناجاته: «وإنك لا تحتجب عن خلقك، إلا أن تحجبهم الأعمال السيئة دونك»[2].

وكان أمير المؤمنين عليه السلام قد طلّق الدنيا وكذلك أبنائه سلام الله عليهم أجمعين، ولقد كان الإمام الحسن عليه السلام يقول:«مطلّقة الأباء لا تحل للأبناء»، وبالإسناد عن الثمالي قال: رأيت علي بن

---

(١) بحار الأنوار، ج٦٦، باب٣٧.
(٢) مهج الدعوات، ص١٨١.

الحسين عليه السلام يصلي فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوّه حتى فرغ من صلاته، قال: فسألته عن ذلك، فقال عليه السلام: «ويحك أتدري بين يدي من كنت؟! إن العبد لا تقبل منه صلاة إلا ما أقبل عليه منها. فقلت: جعلت فداك هلكنا، قال: «كلا إن الله متمم ذلك للمؤمنين بالنوافل»[1].

وعن علي عليه السلام: «لا يقومنّ أحدكم في الصلاة متكاسلاً ولا ناعساً، ولا يفكرن في نفسه فإنه بين يدي ربه عز وجل وإنما للعبد من صلاته ما أقبل عليه منها بقلبه»[2].

وهذا السفر طويل والكلام فيه كثير، فلو أردنا الدخول في تفصيل موارده لاحتجنا في ذلك إلى إطناب كبير، ولكن العاشقين يعرفون جميع هذه الطرق التي تسقيهم الماء الغدق ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[3] للإرتقاء إلى مقام الكمال الإنساني والوحي الرباني. ومن الضروري للسالك أن يكون ملتفتاً على الدوام إلى إزاحة كل ما يضعف قوى العزيمة عنده وكثير ممن يقع في التخامل والتكاسل من خلال مرافقته ومعاشرته لبعض من لا يمتلكها،

---

(١) وسائل الشيعة، مج٤، الباب الثالث من أبواب أفعال الصلاة، ح٦ وح٤.
(٢) وسائل الشيعة، مج٤، أبواب أفعال الصلاة، ح٥.
(٣) سورة الجن: الآية١٦.

فيمحى من صحيفة أصحاب العزيمة ويكتب مع أهل الأهواء الفاسدة ـ والعياذ بالله ـ

لذا فإن مصاحبة أهل الهوى والشر يسد الطريق أمام العبد للحصول على ما يبني به عزمه، ويقوي مبادراته ويرفع حجبه.

إذن، عليك أن تكون حذراً في ساحة جهادك لنفسك، فإذا رأيت مظهراً من مظاهر البعد عن الله فتجنبه لان الكارثة تقع على رأسك أنت إذا لم تحذر الأشواك في طريقك، وتزيل العقبات من أمامك ﴿..وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1].

وعليه، فإن العمل على أساس هذا التوجيه الذي بيناه يقربك حتماً من الله ورضاه وعطاءه فإنه جواد كريم ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾[2]. ولكن هذا العطاء من الله تبارك وتعالى مشروط بأن تجعل كل أعمالك خالصةً لوجهه الكريم.

---

(١) سورة النساء: الآية٧٩.
(٢) سورة الضحى: الآية٥.

الفصل الخامس

التوكل

إن التوكل على الله عز وجل منزل من منازل الصديقين والأولياء الصالحين وهو مقام من مقامات العارفين والموحدين والمخلصين ومعناه: أن يتوكل العبد على مولاه في جميع أموره وأفعاله وعدم الوثوق بغيره من الوسائط. قال الصادقﷺ: «ليس شيء إلا وله حد، قيل: فما حد التوكل قال: اليقين، قيل: فما حد اليقين» قال:«أن لا تخاف مع الله شيئاً»[1].

قيل: إن التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس[2].

وعن بعض أهل العرفان: التوكل هو طرح البدن في العبودية وتعلق القلب بالربوبية[3].

وقيل: هو التبرّي من كل حولٍ وقوة، والإعتماد على حول الله وقوته (أي قدرته)[4].

وفي رواية أن جبرائيلﷺ جاء إلى النبي الأكرمﷺ فقال: «يا رسول الله، إن الله أرسلني بهدية لم يعطها أحداً من قبلك». قال رسول اللهﷺ: ما هي، قال: «الصبر، وأحسن منه»، قال:

---

(١) مختصر جامع المعارف والأحكام، ج١، ص١٩١.
(٢) التعريفات، الجرجاني، ص٧٤.
(٣) الرسالة العشيرية، ج١، ص٤٦٨.
(٤) جامع السعادات، ج٣، ص٢٢٠.

«وما هي» قال: «الرضا، وأحسن منه»، قال: «وما هو»، قال: «الزهد، وأحسن منه» قال: «وما هو»، قال: «الإخلاص وأحسن منه»، قال: «وما هو»، قال: «اليقين وأحسن منه»، قال: «وما هو»، قال: «إن مدرجة ذلك التوكل على الله»، قال: «وما التوكل على الله»، قال: «العلم بأن المخلوق لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع واستعمال اليأس من الخلق، فإذا كان العبد كذلك لم يعمل لأحد سوى الله، ولم يخف ولم يرجو سوى الله ولم يطمع بأحد سوى الله وهذا هو التوكل على الله»[1].

والتوكل على الله يعني أيضاً نسبة الأمور إليه عز وجل بنحو من التمليك وأن تعتبر أن المستقل الوحيد في التأثير والقاهر لكل سبب الغالب عليه هو الله سبحانه وتعالى. فمن العقل والرشد توجيه الأشياء والأحداث إلى واكلها وعدم الركون إلى الأسباب الظاهرية وذلك لأن المتوكل على الله مكفي أما غيره فلا.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2].

وحينما سُئل الإمام الكاظم عليه السلام عن تفسير ذلك قال: «التوكل على الله درجات، منها أن تتوكل على الله في أمورك فما فعل

---

(١) عدة الداعي، ص٩١.
(٢) سورة الطلاق: الآية٣.

بك كنت به راضياً، وتعلم أنه لا يألوك خيراً وفضلاً وتعلم أن الحكم في ذلك له، فتوكل على الله بتفويض ذلك إليه وثق به فيها وفي غيرها»[1].

إذن يتضح لنا من كل ما قدمناه أن التوكل على الله يعني: الرضا عنه والتفويض إليه والثقة به.

فعند تحقق هذه الأمور الثلاثة يصبح العبد متوكلاً على الله حقيقة.

فالتوكل هو الإنقطاع إلى الله وعدم التعلق بالأسباب الطبيعية ولا أقصد بذلك ترك الأسباب لأن الناس بطبيعتها بحاجة إلى بعضها البعض، فإذا أراد الإنسان أمراً وتوصل إليه بالأسباب العادية مع رؤيته بأن الله تعالى هو المسّبب الوحيد لبلوغ المرادات فإن هذا لا ينافي مقام التوكل.

يقول العلاّمة الطباطبائي في تفسيره: فليس التوكل هو قطع الإنسان أو نفيه نسبة الأمور إلى نفسه أو إلى الأسباب الطبيعية بل هو نفيه دعوى الإستقلال عن نفسه وعن الأسباب وإرجاع الإستقلال والأصالة إليه تعالى مع إبقاء أصل النسبة غير المستقلة التي إلى نفسه وإلى الأسباب.

---

(١) مختصر جامع المعارف والأحكام، ج١، ص١٩٣..

ولذلك نرى يعقوب عليه السلام فيما تحكيه الآيات من توكله على الله لم يلغ الأسباب ولم يهملها، بل تمسك بالأسباب العادية، فكلم أولاً بنيه في أخيهم ثم أخذ منهم موثقاً من الله، ثم توكل على الله وكذلك فيما وصاهم في الآية الآتية بدخولهم من أبواب متفرقة ثم توكله على ربه تعالى، فالله سبحانه على كلّ شيء وكيل من جهة الأمور التي لها نسبة إليها كما أنه ولي لها من جهة استقلاله بالقيام على الأمور المنسوبة إليها وهي عاجزة عن القيام بها بحول وقوّة، وأنه ربّ كل شيء من جهة أنه المالك المدبر لها[1].

وجاء في المستدرك من كتاب وسائل الشيعة أن أمير المؤمنين عليه السلام مرّ يوماً على قوم أصحاء جالسين في زاوية المسجد فقال عليه السلام: «من أنتم» فقالوا: «نحن المتوكلون»، قال عليه السلام: «لا، بل أنتم المتأكلة، فإن كنتم متوكلين فما بلغ بكم توكلكم؟» قالوا: «إذا وجدنا أكلنا وإذا فقدنا صبرنا»، قال عليه السلام: «هكذا تفعل الكلاب عندنا»، قالوا: «فما نفعل»، قال عليه السلام: «كما نفعل»، قالوا: كيف تفعل ؟ قال: «إذا وجدنا بذلنا وإذا فقدنا شكرنا»[2].

فالمطلوب هو التوكل الخالص غير المشوب بأي تلبيسات

---

(١) تفسير الميزان، ج١١، ص٢١٧.
(٢) المستدرك، ج١١، باب٢٢٠، ح١١.

بالإعتماد على غيره تعالى والثقة بأحد من الناس.

بالإضافة إلى عدم الإغفال عن السبب الحقيقي الذي أوصلك إلى المقصود لأن مجاري الأمور بيده تعالى وتحت قضائه وتقديره. فإذا تقرر ذلك في وجدانك، كانت الراحة وعدم التعب هو رائدك لأنك لن تكترث وتعطي أية أهمية لما قد تفقده من أمورك أو تحصل عليه منها فإن هذا بفعل قضاء الله وتقديره، وإن الإيمان والثقة بما عند الله يدفعك لهذا الإعتماد، وهو يورث لك الراحة ـ كما تقدم ـ وعدم تعب الروح خلال السعي للحصول على ما تريد ـ يقول الشيخ المامقاني﵀ ـ: فإن بين السعي والوصول عموم وخصوص من وجه، فإن وافق القضاء السعي اجتمعا، وإن خالفه افترقا، ففي افتراقهما وعدم النيل تتألم، وفي إتفاقهما تنال تعباً، بخلاف ما إذا توكلت على الله تعالى فإن اقتضى التقدير حصول مرادك نلته بغير تعب، أو إن اقتضى عدمه لم تكن تاعباً بالطلب والسعي حتى تتحسر على التخلف[1].

فبالنظر إلى أصالة السبب الحقيقي ونفي ما يعارضه يلحق بك الطمأنينة بحصول المراد وعدم التعب عند عدم الوصول إليه.

---

(١) مرآة الرشاد والماقاني، ص٦٣.

وجاء في مجمع البيان ٢٦٨/٥ عن أبي عبد الله عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون**﴾.

قال: إن قول الرجل لولا فلان لهلكت، ولولا فلان لضاع عيالي، جعل الله شريكاً يرزقه ويدفع عنه، فقيل له: لولا أن من الله عليّ بفلان لهلكت، فقال: لا بأس وهو شرك في الطاعة ولا شرك عبادة.

وفي قوله تعالى: ﴿**ومن يتوكل على الله**﴾، معنى ذلك إستناده في جميع أموره على الحضرة الإلهية.

والعلم أنه المتصرف الوحيد فيها والفاعل، ولا يطلب زيادة ولا نقصاناً ولا تعجيلاً ولا تأخيراً بالعمل الذي يريده. وقوله فهو حسبه، أي كافيه ومؤدي له ما يريد فيما لو توكل عليه وأناب إليه ﴿**إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ**﴾، ﴿ **قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً**﴾، فإن الله تعالى قدّر كل شيء وحدده.

ومفاده قول تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً**﴾[1] من الفقر إلى الغنى، ومن الشقاء إلى السعادة، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن العزوبة إلى الزواج وهكذا، ومن الركون إلى

---

(١) سورة الطلاق: الآية٢.

الدنيا إلى الإعراض عنها بالتوكل ﴿ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾.

بحيث إن اتقى العبد الله بتورعه عن المحرمات وفعله للواجبات، فإن الله تعالى يرزقه من حيث لا يحتسب.

ولازم ذلك أن لا يريد إلا ما أراد الله عز وجل، وقد سئل بعض الصالحين قيل له: ماذا تريد، قال: أريد أن لا أريد.

فالتقوى تقتضي التسليم المطلق للباري جل وعلا، والتوكل عليه باعتباره الرازق الوحيد والمخلص والمنجي الذي لا يوجد غيره.

وقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام عن رجل مسجون بين أربعة جدران قيل له: من أين يأتيه رزقه فقال الأمير عليه السلام: «من حيث يأتيه أجله».

فعندما يرى العبد نفسه متديناً بدين الحق يجب أن يعتمد على الله لينال السعادة والقوة في الدنيا والآخرة.

يقول الشيخ المامقاني: ولا يخدعك ما يستند إليه القاصرون من أن الله تعالى أبى أن يجري الأمور إلا بأسبابها، فإن ذلك ناشئ من عدم نيل المراد بذلك، فإن المراد به أن الأمور لا تحصل بغير الأسباب وأين ذلك من اعتبار تسبب العبد لنفسه

بالأسباب ؟! كيف، والأدعية مشحونة بأن الله تعالى سبب الأسباب من غير سبب. فالذي أبى جريان الأمور بغير أسبابها هو الذي يسبب الأسباب على مقتضى تقديره من غير تسبيب العبد[1].

إن هذا التوكل الحقيقي هو الذي يخرج العبد من مضائق المشكلات والأمور ويحل له عقد كثيرة في حياته، وينجيه من ظلمات الأوهام التي يمكن أن تكون طريقاً إلى عدم الإطمئنان لله تعالى، وهذا ما يسبب ضعف اليقين الذي يورث إماتة القلب، فتكون نهاية الإنسان متوقفة عليه إما أن يطمئن نفسه إلى أن الله تعالى يبلغه ما يريد، وإن لم يفعل ذلك فإنه سوف يستولي عليه المرض من ضعف اليقين أو ضعف القلب.

يقول المولى النراقي في جامع السعادات: ومرضه باستيلاء الجبن عليه وانزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه، فإن القلب الضعيف ينزعج تبعاً للوهم، وطاعة له من غير نقصان في اليقين، كانزعاجه أن يبيت مع ميت في قبر أو فراش مع يقينه بأنه جماد في الحال لا يتصور منه إضرار، فلا ينبغي أن يخاف منه ويفر عنه، كما لا يفر من سائر الجمادات. وكذا من كان ضعيف القلب وتناول العسل ـ مثلاً ـ فشبّه العسل بين يديه

---

(١) مرآة الرشاد، المامقاني، ص٦٤.

بالعذرة، فربما نفر طبعه لضعف قلبه، وتعذر عليه أن يتناوله مع يقينه بأنه عسل ولا مدخلية للعذرة فيه. فالتوكل لا يتم إلا بقوة اليقين وقوة القلب جميعاً، إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته، فالسكون في القلب شيء، واليقين شيء آخر، فكم من يقين لا طمأنينة معه. كما قال تعالى: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[1] فاليقين أن يشاهد إحياء الميت بعينه ليثبت اليقين في خياله، فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن له، ولا تطمئن باليقين في إبتداء أمرك إلى أن تبلغ درجة النفس المطمئنة، وذلك لا يكون في البداية، وكم من مطمئن لا يقين له كأرباب الملل والمذاهب الباطلة. فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوّده وكذا النصراني، ولا يقين لهما أصلاً، وإنما يتبعان الظن وما تهوى الأنفس[2].

أقول: إن تقوية القلب في طمأنينته يبعث على إشراق نور اليقين، فعندها لا مجال للشك المخالط للوهم الناشئ عن ضعفهما، فتحصل حينئذٍ الحالة المسماة (بالتوحيد الإعتقادي) التي تؤدي إلى التوكل على الله تعالى من التسليم له وتفويض الأمور إليه، كالمرتبة التي وصل إليها إبراهيم الخليل عليه السلام لما عرض عليه جبرائيل عليه السلام وهو في المنجنيق وقد رمي إلى النار

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٦٠.
(٢) جامع السعادات، ج٣، ص٢٢٠ــ ٢٢١.

فقال له: يا أخي إبراهيم هل من حاجة ؟ فأجابه إبراهيمﷺ قائلاً: «أما إليك فلا». فجعل الله عليه النار برداً وسلاماً وأنزل الله بشأنه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾[1].

فكل من قصر نظره إلى مسبب الأسباب يحصل له الإلتفات إلى الله تعالى لا غير، بقطع نظره عن العلائق الدنيوية والشواغل الظاهرية التي تمنع عن ظهور السبب الحقيقي والإتصال بحضرته الجبروتية.

وما أروع ما قاله الإمام الصادقﷺ عندما سأله شخص عن وجود الله تعالى، فأراد الإمامﷺ أن يثير له الإحساس الفطري بوجوده وحضوره عزّ وجلّ فقال له الإمامﷺ: «هل ركبت سفينة قط؟» قال: «بلى»، قالﷺ: «هل كسرت بك حيث لا سفينة تنجيك ولا سباحة تغنيك؟» قال: «بلى»، قالﷺ: «فهل تعلق قلبك هناك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟» قال: «بلى»، قال الصادقﷺ: «فذلك الشيء هو الله تعالى القادر على الإنجاء حيث لا منجي وعلى الإغاثة حيث لا مغيث»[2].

---

(١) سورة النجم: الآية٣٧/ الطريق إلى الله، البحراني، ص١٤٥.
(٢) منهاج النجاة، ص٢٠.

ومحصل الكلام: أن انقطاع العبد عن الأسباب الطبيعية يوجهه إلى الله تعالى، أما تعلقه وانشغاله بها هذا إنما يحجبه عن الحضرة القدسية، فلا يكون متوكلاً عليه بأي حالٍ من الأحوال.

وهكذا تجد أن القلوب كلما أعرضت عن خالقها ولم تختبر استنجاد الله لها، إذ لا يلائمها أن تعرض نفسها للخطر فيما لو بعد المسبب فإن ذلك أورث فيها جفاءً ليس له حل سوى رضوخها للحضرة الإلهية في مقام تسديد حاجتها وأداء معونتها.

وكذلك ربما وجدت فيها ـ أي في هذه القلوب ـ عند عدم الإلتفات إلى السبب الأول الأساسي إضطراباً شديداً لا يرتفع إلا بإجتماع الأسباب فإذا فقدت لم يستقر قلبه ولا يرتفع عنه الإضطراب أبداً.

وضد هذه الحالة إستقرار القلب والنفس معاً عند عدم اجتماع الأسباب فيكون وجودهما وفقدهما على السواء، لا بل يكون وجودهما مسبباً للإضطراب النفسي فلا يكمل استقرار القلب إلا بفقد هذه الأسباب وعدم اجتماعها. وهذا أعلى مقامات التوكل وأصدقها ـ كما سيأتي ـ المعبّر عنه بالتوحيد الإعتقادي الحقيقي.

واعلم أن ما يعود إليه ضعف الإيمان والعقيدة هو ضعف القلب، فإنه مرض يورث ظلمة بقية ما يتصل بك من أعضاء وجوارح وهذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان وإن كان قد تغافل عنها بعض إخواننا الذين وقعوا في الإشتباه العظيم بعدم علاقة الأخلاق والمعارف بالباطن، بل ما ينعقد عليه فعل الإنسان الخارجي، وهذا يرجع إلى ضعف التفكير والجهل بطريقة أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال.

وعلى أية حال، فعلى من يبغي نيل الكمالات الإنسانية العليا أن يسلك طريقهمﷺ بحيث لا يضل عنهم، وأن يتحمل كل المحن التي تجري عليه خلال سيره وسلوكه.

ولقد أجاد من قال[1]:

إذا كنت تهوى القوم فاسلك

طريقهم فما وصلوا إلا بقطع العلائق

وقد نبهت فيما مر من الكلام على أن أعلى مقامات التوكل، هو المقام التوحيدي الأعلى، أو قل: الإعتقادي. وهذا إنما يتم فيما لو توجه العبد إلى ربه بحيث لا يشرك معه أحد من خلقه، وقد قيل: مكتوب في التوراة ملعون من ثقته إنسان مثله،

---

(١) الطريق إلى الله، ص١٤٠.

وقد قال عليه السلام: "من استعز بغير الحق أذله الله بالحق"[1].

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[2].

ولا يخفى علينا توسل بعض العبيد ببعضهم بسبب فقد فضيلة التوكل فيما إذا سرقت بضاعته أو خسرت تجارته فإن قلبه يكون عندئذٍ مليئاً بالشبهات ولو امتثل الحديث الشريف: "دع ما يريبك إلى ما لا يريبك" لما وقع فيما وقع فيه أولاً، ولو أنه اطمأن إلى الله تعالى لما اضطرب فيما حصل معه من الخسران ثانياً، وإن عدم الرضا بالقضاء ينتج التعب والإرهاق في سبيل تحصيل دنيا ما أسرع من أن تزول وتتفتت.

نُقل أن مولانا الحسن بن علي عليه السلام علم بعض الشيعة في عالم الطيف أنه ينال ما يريده من نهاية العرب منهم والتمكن من رؤيتهم مهما أراد بالإتصاف بما في هذه الأبيات وهي قوله[3]:

كن عن همومك معرضاً ... وكِل الأمور إلى القضاء
فلربما اتسع المضيق ... وربما ضاق الفضا
ولربّ أمرٍ مسخط ... لك في عواقبه رضا

---

(١) غرر الحكم، ص٤٧٨..
(٢) سورة الأعراف: الآية١٩٤..
(٣) الطريق إلى الله، ص١٢٢.

الله يفعـــل مـــا يشـــاء فـــلا تكـــن معترضـــا
الله عـــوّدك الجميـــل فقس على ما قد مضى

فأعظم مقام للعارفين والموحدين والصادقين هو الإعراض عما يشغلهم عن الله تعالى من هموم وأن يعتصموا بالله تعالى في كل أحوالهم، وقد قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾[1].

وقال أيضاً: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

وقال عز من قائل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

وقال رسول الله ﷺ: «من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب، ومن انقطع إلى الدنيا وكله الله إليها». وقال ﷺ: «من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يده»[4].

ومن الأسف الشديد أنك تجد بعض المتوكلين على الله ظاهراً باللسان، الذين يكونون مع ربهم حال تنعمهم بالأمن

---

(١) سورة الزمر: الآية١٣٦.
(٢) سورة الأنفال: الآية٤٩.
(٣) سورة المائدة: الآية٢٣.
(٤) تنبيه الخواطر، ج١، ص٢٢٢.

والإستقرار، وعندما تضيق بهم الأحوال ينفرون من كل ما له اتصال معه عز وجل حتى كأنه هو الذي أوقعهم فيما وقعوا فيه من مآزق، وهذا مرجعه إلى ضعف اليقين وعدم حصول التوكل الحقيقي في النفس. قال الرسول ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقتم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»[1].

وعن علي بن الحسين عليه السلام قال: «خرجت حتى انتهيت إلى هذا الحائط، فاتكأت عليه فإذا رجل عليه ثوبان أبيضان ينظر في تجاه وجهي، ثم قال: يا علي بن الحسين، مالي أراك كئيباً حزيناً؟ أعلى الدنيا، فرزق الله حاضر للبر والفاجر، قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول، قال: فعلى الآخرة ؟ فعود صادق يحلم فيه ملك قاهر قادر. قلت: ما على هذا أحزن، وإنه لكما تقول، فقال: مم حزنك ؟ قلت: مما نتخوف من فتنة ابن الزبير وما فيه للناس، قال: فضحك، ثم قال: يا علي بن الحسين، هل رأيت أحداً دعا الله فلم يجبه ؟ قلت: لا ! قال: فهل رأيت أحداً توكل على الله فلم يكفه ؟ قلت: لا ! قال: فهل رأيت أحداً سأل الله فلم يعطه ؟ قلت: لا !.. ثم غاب عني».

---

(١) الفضائل والأضداد، الشيرازي، ص٢٧٦.

ولعل الرجل كان هو الخضر عليه السلام[1].

وكفاك في ما يترتب على عدم التوكل على الله تعالى ما ورد عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «رحم الله أخي يوسف لو لم يقل ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ لولاه من ساعته، ولكنه أخّر ذلك إلى سنة[2]. وإن اعتماده على أحد صاحبيه في السجن بقوله ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ أخّر نجاته سبع سنين»[3].

وعاتبه الله تعالى على ذلك فيما روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «جاء جبرائيل عليه السلام فقال: يا يوسف من جعلك أحسن الناس؟ قال: ربي، قال: فمن حببك إلى أبيك دون إخوتك ؟ قال ربي، قال: فمن ساق إليك السيارة؟ قال ربي، قال: فمن صرف عنك الحجارة ؟ قال ربي، قال: فمن أنقذك من الجب؟ قال ربي، قال: فمن صرف عنك كيد النسوة ؟ قال ربي، قال: فإن ربك يقول: ما دعاك إلى أن تنزل حاجتك بمخلوق دوني، إلبث في السجن بما قلت بضع سنين».

---

(١) الفضائل والأضداد، ص٢٧٦.
(٢) مجمع البيان، ٥/ ٢٤٣.
(٣) مرآة الرشاد، ص٦٦.

وأكثر المفسرين على أن البضع في الآية سبع سنين[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لما ألقى أخوة يوسف يوسف عليه السلام في الجب، نزل جبرائيل عليه السلام فقال له يا غلام، من طرحك هنا، فقال: إخوتي لمنزلتي من أبي حسدوني، ولذلك في الجب طرحوني، فقال: أتحب أن تخرج من هذا الجب ؟ قال: ذلك إلى إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب. فقال له: فإن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب يقول لك قل: (اللهم إني أسالك بان لك الحمد لا إله إلا أنت بديع السماوات والأرض يا ذا الجلال والإكرام أن تصلي على محمد وآل محمد وأن تجعل في أمري فرجاً ومخرجاً وترزقني من حيث أحتسب ومن حيث لا أحتسب) فجعل الله له من الجب يومئذٍ فرجاً ومخرجاً، ومن كيد المرأة مخرجاً وآتاه ملك مصر من حيث لا يحتسب»[2].

وكذلك يعقوب عليه السلام عاتبه الله تعالى في شكايته مصائبه إلى عزيز مصر، وعدم استغاثته بالله تعالى، ولم ينج إلا بعد الإستغفار والإنابة، وقد أعطى الله تعالى إبراهيم عليه السلام منصب الخلة لأنه لم يسأل أحداً شيئاً قط[3].

---

(١) مجمع البيان، ٥/ ٢٣٥.
(٢) مجمع البيان، ٥/ ٢١٧.
(٣) مرآة الرشاد، ص٦٨.

وقد روي عن النبيﷺ أنه قال: «رأيت الخير كله قد اجتمع في قطع الطمع عما في أيدي الناس»[1].

وعن الصادقؑ قال: «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، فليأس من الناس كلهم ولا يكون له رجاء إلا من عند الله، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأل الله شيئاً إلا أعطاه، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإنّ للقيامة خمسين موقفاً، كل موقف مقداره ألف سنة ثم تلا قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[2]».

ويقول الإمام زين العابدينؑ في الدعاء الثالث عشر من الصحيفة السجادية في ذكر طلب الحوائج إلى الله تعالى: «من حاول سد خلته من عندك، ورام صرف الفقر عن نفسه بك، فقد طلب حاجته من مظانّها، وأتى طلبته من وجهها، ومن توجه بحاجته إلى أحد من خلقك أو جعله سبب نجحها دونك فقد تعرض للحرمان واستحق من عندك فوت الإحسان[3]» ثم يبدأ الإمامؑ بطلب حوائجه منه تعالى.

وقال الصادقؑ: «أوصى الله تعالى إلى داوود: ما اعتصم

---

(١) وسائل الشيعة، ٢/ ٤٧٥، باب٦٦، ح٣.
(٢) سورة السجدة: الآية٥.
(٣) الصحيفة السجادية، الدعاء٤٢.

بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي، عرفت ذلك من نيته، ثم تكيده السماوات والأرض ومن فيهن، إلا جعلت له المخرج من بينهن»[1].

وقال عليه السلام: «إن الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا»[2].

وهناك حديث قدسي لا يخفى على المتأمل ما فيه من المضامين السامية التي تشمل من كان متوكلاً على الله حق توكله. قال الصادق عليه السلام: إن الله تعالى يقول: «وعزتي وجلالي ومجدي وارتفاعي على عرشي لأقطعن أمل كل مؤمل من الناس في غيري باليأس، ولأكسونه ثوب المذلة عند الناس ولأنحينه من قربي، ولأبعدنه من وصلي، أيؤمل غيري في الشدائد والشدائد بيدي ويرجو غيري ويقرع بالفكر باب غيري وبيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة؟ وبابي مفتوح لمن دعاني فمن الذي أملني لنوائبه فقطعته دونها، ومن الذي رجاني لعظيمة فقطعت رجاءه مني؟ جعلت آمال عبادي عندي محفوظة، فلم يرضوا بحفظي، ملأت سماواتي ممن لا يمل من تسبيحي وأمرتهم ألا يغلقوا الأبواب بيني وبين عبادي، فلم

---

(١) تنبيه الخواطر، ص٢٢٢.
(٢) مشكاة الأنوار، ص٢٤.

يثقوا بقولي. ألم يعلم من طرقته نائبة من نوائبي أنه لا يملك كشفها أحد غيري إلا من بعد إذني، فمالي أراه لاهياً عني؟ أعطيته بجودي ما لم يسألني ثم انتزعته عنه فلم يسألني رده وسأل غيري. أفتراني أبدأ بالعطية قبل المسألة ؟ ثم أسأل فلا أجيب سائلي أ بخيل أنا فيبخلني عبدي ؟ أوليس الجود والكرم لي؟ أوليس العفو والرحمة بيدي ؟ أولست أنا محل الآمال فمن يقطعها دوني؟ أفلا يخشى المؤملون أن يؤملوا غيري ؟ فلو أن أهل سماواتي وأهل أرضي أملوا جميعاً، ثم أعطيت كل واحد منهم مثل ما أمل الجميع ما انتقص من ملكي مثل عضو ذرة، وكيف ينقص ملك أنا قيمه ؟ فيا بؤساه للقانطين من رحمتي ! ويا بؤساه لمن عصاني ولم يراقبني!»[1].

ويظهر من كل هذا وجوب التوكل على الله تعالى وفي تفسير قوله تعالى ﴿وَمَا لَنَا أَلاَّ نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[2].

يقول السيد الطباطبائي:

«وهذا في الحقيقة حجة ثابتة على وجوب التوكل عليه وإلقاء الزمام إليه سلك فيها من طريق الآثار الدالة على وجوب

---

(١) جامع السعادات، ج٣، ص٢٢٤.
(٢) سورة إبراهيم: الآية١٢.

التوكل عليه كما أن الحجة السابقة سلك فيها من النظر في نفس المؤثر، وتقرير الحجة أن هدايته تعالى إيانا إلى سبلنا دليل على وجوب التوكل لأنه لا يخون عباده ولا يريد بهم إلاّ الخير ومع وجود الدليل على التوكل لا معنى لوجود دليل على عدم التوكل، يكون عذراً لنا فيه فلا سبيل لنا إلى عدم التوكل عليه تعالى»[1].

وأما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾، قال: أي كل من تلبّس بالتوكل فعليه أن يتوكل على الله سواء كان مؤمناً أو غير مؤمن، إذ لا دليل غيره غير أن المتوكل بحقيقة التوكل لا يكون مؤمناً فإنه مذعن أن الأمر كله لله فلا يسعه إلا أن يطيعه فيما يأمر وينهى، ويرضى بما رضي به ويسخط عما سخط عنه وهذا هو الإيمان.

أقول: ينبغي على كل عاقل أن يستعمل التوكل، وبأن لا تكون ثقته بأمواله وقوته وشبابه الفاني، بل بصاحب البيت وفي كل حال وكل مورد، وثمة مقدمات أخرى لكننا لم نقصد الإطناب في هذه الرسالة الموجزة وعلى أية حال فإنه لو كان في الدار ديّار لكفته كلمة وطرقة واحدة.

---

(١) تفسير الميزان، ج١٢، ص٣٣.

الفصل السادس

المشارطة

قبل الدخول في بيان ما يلزم على السالك بقدم الكمال لدرك نعيم العقبى في الدارين، لا بد من التعرف على أدوات السير لنيل المراد وتحطيم قيودات النفس حتى بلوغ العشق الإلهي المتكامل، ونتطرق إلى حقيقتها بإيجاز ضمن هذه الأدوات أولاً:

المشارطة: ومفادها إلتزام العهد على النفس بعدم مخالفة أوامر المولى مطلقاً، وأن يتخذ العبد قراراً بينه وبين نفسه يعزم فيه على ترك كل ما يكون مخلاً لأمر الله تعالى، فباعتبار أن عمر الإنسان رأسماله الوحيد الذي لا يمكن تعويضه فيما لو خسره، وعلى هذا يجب عليه أن يشارط نفسه وعقله بوجوب إتباع كلام المولى وتشريعاته لئلا يضيع عمره ويذهب هباءً منثوراً، ويجب عليه أن يستوعب الأعمال المؤدية إلى رضا الباري، وإذا كان كذلك، لا بد من أن يحفظها بأي وسيلة كانت.

وإن الاستفادة من تجارب العلماء في هذا السبيل تغني السالك عن إتباع ما تهواه النفس أولاً ويختصر جزءاً كبيراً من عمره ثانياً.

وعليه بناء على ما ذكرنا أن يشدّ العزم على المشارطة، ولا يدع طريقاً لتسويلات الشيطان وغروره وتزيينه، فيظن بأنه قد نال مرتبة المشارطة وحاز على صفة الطاعة بها ويرضخ أمام

وعود إبليس اللعين في تحقيق ما يراه هو مما يجعلك معتقداً بأنك تخطو إلى الأمام ولكنك بطبيعة الحال لا تزال معوّقاً في مكانك لا تتقدم قيد أنملة ﴿وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[1] ولعل الذي يسوّل لك يكون قريباً منك، متلبساً بصفة الحسن بعيداً عن رذيلة القبح بالتزيّن. وهذا التزين القبيح ربما يقع وأنت غافل عنه غير ملتفت إليه وإلى عاقبته وضرره.

فمن هنا كان الإنسان كلما إبتعد عن الساحة المقدسة الإلهية علق لا محالة في مغاطس وحل الطبيعة، وانشد إلى جهنم المريعة، ومن أراد أن ينتشله منها يغرق معه فيها، وعليه جاء التأكيد في الروايات والآيات المستفاضة باجتناب الرذائل لحصول الفضائل واجتناب القبح لحصول الحسن والتوجه إلى ما هو خير لك مما ينقذك من مهالك واقع فيها أو ربما ستقع فيها في المستقبل القريب، فنحن في هذه الدنيا نسير إلى الله فيما إذا استعملنا ما هو المجدي لنيل المقامات العلوية السنية، وقد ورد الكثير مما يساعد على عدم الوقوع في الحفر المليئة بالأشواك والعقارب والأفاعي.

وهذه المقدمة إنما بدأت بها لأن المشارطة بعد لا تفيد العبد في الوصول إذا لم يحسن إختياره في دنياه من حيث عمله وعلمه

---

(١) سورة النساء: الآية ١٢٠.

ومن يعاشر ويعاضد ونحو ذلك من الأمور.

فكلما أحسن العبد إختيار طريقه بأخذ المشورة من العلماء ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ كانت النتيجة أحسن، وإذا لم يحسن طريقه كانت النتيجة أسوأ. ثم إن هذا الطريق يسير ليس بصعب لا بد فيه من مخالفة النفس وبالتالي عدم الركون إلى تلبيسات اللعين بأن يقول لك مثلاً: إن هذا الذي تسعى إليه لن يجديك نفعاً ليبقيك في المحل الذي أنت فيه، أو أن يرجعك إلى الخلف فيما لو كنت قد طويت مجموعة من المنازل والمقامات. وكلما كان سعيك في نيلها أكثر كان سعيه في محاربتك ليبعدك عن ساحة الحضرة الإلهية أكبر.

فاعقد في نيتك أن الله معك ولن يتركك ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُم﴾ فإنك عندما تتبرأ من أنانيتك وإنيّتك لا ريب في أن العناية الإلهية تعمك ويشملك العطف والكرم الباقيين المخلدين لله تعالى في وجوده.

وعادة النفس الخبيثة الميل إلى الشهوات والملذات المتعلقة بها من الكبر والتسلط وحب الرئاسة والتشبث بالدنيا وقد قيل: إن النفس تدعي الألوهية والربوبية فهي تفرح إذا كانت الأشياء كما تحب وتشتهي، ويحتويها الحزن والغيظ إذا حصل ما يخالف مزاجها.

ولا تستغرب في أن أكثر أسباب ومسببات هلاك الإنسان بيديه، فيعتقد أن كل ما يصدر من نفسه لا علاقة له بالمعصية والذنب، وإنما ما يكون خارجاً عنها هو المؤثر والفاعل في وجود الموبقات. فنقول: إن حالة المعصية والذنب لدى أي إنسان إنما يكون منشأها الإرتباط الوثيق والعلاقة القائمة بينه وبين شيطانه.

فيصور له أشياء عديدة، ويهيئه لورود النار سريعاً، ولكن الله عز وجل بما أنه قد أعطى القدرة للإنسان فإنه بإرادته وعزمه يتجه إلى ما يهواه وإلى ما لا يهواه. ولعل بعض العوام يكون أداة وآلة في يد إبليس لا أكثر، وتعرفه من خلال كلماته وأفعاله وآثاره وسلوكياته فيكون أجنبياً غريباً عن الدين كما هو حاله اليوم وقد نبهنا النبي الأكرمﷺ عن هذا الأمر مسبقاً بقول: «ولد الدين غريباً وسيعود غريباً»[1].

وحتى لا نخرج عن موضوع بحثنا نعود فنقول:

إن المشارطة تأتي بعد التوبة، فبعد أن يتوب العبد إلى الله من معاصيه يشارط نفسه على الثبات في مكان الطاعة، ويمكن أن يقال بأن التوبة والمشارطة كل واحدة منهما متممة للأخرى وتابعة لها، ولا نستطيع أن ننفي إحداهما عن الأخرى، فإن

---

(١) المستدرك، ج١١، باب٣٩، ح٣٢٣..

بقاءهما في حالة التساوي يرتبط بتحصيل الأخرى.

والأشياء التي يمكن أن يشترطها على نفسه لا تحصى كثرة نذكر بعضاً منها:

١ـ يشترط على نفسه أن يكون قليل الكلام، أي كثير الصمت لما ورد أن الصمت مطردة للشيطان وعون لك على أمر دنيك[١]، وقد قال لقمان لابنه:«يا بني إن كنت زعمت أن الكلام من فضّة فإن السكوت من ذهب»[٢]. وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان المسيح عليه السلام يقول: «لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله فإن الذين يكثرون الكلام في غير ذكر الله قاسية قلوبهم ولكن لا يعلمون»[٣].

٢ـ أن لا يكون كثير الأكل والشرب قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾[٤] وقال عز من قائل: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[٥]، وقد ورد أن كثرة الشراب يزيغ القلب كما يزيغ الماء الملح.

وهو من موجبات جموح النفس وطغيانها.

---

(١) البحار، ج٧١، ص٢٧٩.
(٢) وسائل الشيعة، ج١٢، باب١١٧، ح١٨٣.
(٣) الكافي، ج٢، باب الصمت وحفظ اللسان، ص٣.
(٤) سورة الإسراء: الآية٢٧.
(٥) سورة الأعراف: الآية٣١.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام: «إن البطن ليطغى في أكله. أقرب ما يكون العبد من ربه عز وجل إذا خف بطنه، وأبغض ما يكون العبد إلى الله عز وجل إذا امتلأ بطنه»[1].

٣- أن يكون دائماً على طهارة، فإن الحفاظ عليها من أهم الآداب، وهي شرط النجاح في أي عمل، فقد نقل أن والدة الشيخ الأعظم مرتضى الأنصاري سئلت عن سبب بلوغ إبنها هذه المرتبة العلمية الساحقة فأجابت بأنها كانت ملتزمة بإرضاعه وهي على وضوء. وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «من أحدث ولم يتوضأ فقد جفاني، ومن توضأ ولم يصل ركعتين فقد جفاني، ومن صلى ركعتين ولم يدعني فقد جفاني، ومن أحدث وتوضأ وصلى ركعتين ودعاني فلم أجبه فيما يسأل من أمر دينه ودنياه فقد جفوته ولست برب جافٍ»[2].

وقد ورد إستحباب الوضوء الثاني عند الكون على وضوء لزيادة النور وتحصيل الثواب.

٤- أن يشترط على نفسه ويسعى جاهداً في الإقتداء بالنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام بعد معرفتهم، ويتكل على الله تبارك وتعالى في ذلك، فقد قال عز من قائل: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي

---

(١) الكافي، ج٦، ص٦٨.
(٢) وسائل الشيعة، ج١، باب١١، ح٣٨٢.

حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾[2].

٥ـ الإلتزام بقراءة وحفظ الكتاب الكريم وتعلم أحكامه وتفسيره والعمل به كما ورد في جل الروايات من التأكيد على الأخذ به نهجاً وطريقاً حتى ينفتح نور الحياة أمام العبد فيبصر طريقه، جاء في فلاح السائل للسيد الأجل ابن طاووس قدس سره، إن مولانا الصادق عليه السلام كان يتلو القرآن في صلاة فغشي عليه فلما أفاق سئل ما الذي أوجب ما انتهت حالك إليه ؟ فقال عليه السلام ما معناه: ما زلت أكرر آيات القرآن حتى بلغت إلى حال كأنني سمعتها مشافهة ممن أنزلها على المكاشفة والعيان فلم تقم القوة البشرية بمكاشفة الجلالة الإلهية[3].

٦ـ أن يشغل وقت الفراغ بالأمور المقربة وأفضلها العلم، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي بن أبي طالب عليه السلام في وصية له قال: «يا علي إذا رأيت الناس يتقربون إلى الله بأنواع القربات فتقرب إليه بالعقل».

---

(١) سورة الشورى: الآية٢٠.
(٢) سورة الأحزاب: الآية٢١.
(٣) فلاح السائل، ذكر أدب العبد في قراءة القرآن في الصلاة، ص١٠٧.

وفي رواية مضمونها أن رجلاً أتى أمير المؤمنين عليه السلام وقد بانت عليه علامات التعب والإرهاق فقال للأمير عليه السلام: إن هذه آخر ساعة من عمري فما تنصحني أن أعمل، فقال له عليه السلام: «أطلب العلم».

وقد ورد في الحديث عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أنه قال: «يفتح للعبد يوم القيامة على كل يوم من أيام عمره أربع وعشرون خزانة عدد ساعات الليل والنهار، فخزانة يجدها مملوءة نوراً وسروراً فيناله عند مشاهدتها من الفرح والسرور ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم عن الإحساس بألم وهي: الساعة التي أطاع فيها ربه، ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها مظلمة منتنة مفزعة، فيناله عند مشاهدتها من الفزع والجزع ما لو قسّم على أهل الجنة لنغص عليهم نعيمها، وهي الساعة التي عصى فيها ربه، ثم يفتح له خزانة أخرى فيراها فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسؤوه، وهي الساعة التي نام فيها أو انشغل فيها بشيء من مباحات الدنيا، فيناله من الغبن والأسف على فواتها حيث كان متمكّناً من أن يملأها حسنات ما لا يوصف، ومن هذا قوله تعالى: "ذلك يوم التغابن»[1].

---

(١) البحار، ٧/ ٢٦٢.

وهناك حوار حصل ما بين السيد مرتضى وأخوه الشريف الرضي عندما اختلفا في كتاب ورثاه عن أبيهما فقال السيد المرتضى (رض) هذا الكتاب لمن لم يرتكب حراماً في حياته قط، فوضعا معاً يدهما عليه، ثم قال السيد المرتضى هذا الكتاب لمن لم يفكر في حرام قط ثم فعلا مثل المرة الأولى، ثم قال السيد: هذا الكتاب لمن لم يرتكب مكروهاً في حياته قط، ففعلا أيضاً نفس الشيء، ثم قال السيد: هذا الكتاب لمن لم يفكر في ارتكاب مكروه في حياته، فوضع الإثنان يدهما عليه، فقال السيد بعد ذلك: هذا الكتاب لمن لم يرتكب مباحاً في حياته، فوضع السيد المرتضى يده على الكتاب دون الشريف الرضي وقال له: أنا لم أرتكب مباحاً طيلة حياتي، فإن كل أعمالي من الأكل والشرب والنوم ونحو ذلك كنت قاصداً أو ناوياً فيها القربة لله تعالى.

نعم إن الإنسان يستطيع من خلال إدارة دفة أعماله وتصرفاته، أن يشرط على نفسه بجعل كل عمل يقوم به لوجه الله تعالى، وفي كلام النبي ﷺ لأبي ذر: «يا أبا ذر ليكن لك في كل شيء نية حتى في النوم والأكل»[1].

وإضافة إلى ذلك مهما كان العمل صغيراً بمنظار الدنيا فإنه يكون عظيماً عند الله تعالى بشرط طلب وجهه عز وجل، وقد

---

(١) وسائل الشيعة، ج١، باب٤٨، ح٥.

أطعم أهل البيت ثلاثة فقراء، مسكين ويتيم وأسير في ثلاثة أيام ثلاث أقراص من الشعير فأنزل الله تعالى لهم سورة تقرأ إلى آخر الدهر ﴿ويطعمون الطعاموَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً* إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً﴾هذا لأن عملهم كان لوجه الله تعالى وليس لسواه.

٧. الورع عن المكروهات والإلتزام بالمستحبات

وأفضل المستحبات تأكيداً مؤكداً هي صلاة الليل، ففي البداية يؤدّيها بالقدر الذي يخوله أن يكون من أهلها كأن يصلي ركعتا الشفع والوتر، وبعد أن يحكم نفسه في القيام بآناء الليل دائماً يهم إلى أداء نوافلها الثمانية.

وإن اجتناب المكروهات أفضل من فعل المستحبات كما أن ترك المحرمات أفضل منه أيضاً بلا شك.

٨. الإنقطاع إلى الله تعالى، والإنقطاع عما سواه:

قال الصادق عليه السلام: "واقطع عمّا ينسيك وصله ذكر الله تعالى"[١]، وهذا يعني أن يترك المرء مجالسة ومعاشرة من يصده عن ذكره تعالى. ويقول نبي الله عيسى (على نبينا وآله وعليه السلام) في جواب الحواريين وقد سألوه: يا روح الله من نجالس؟ قال: «من يذكركم الله رؤيته، ويزيد في علمكم منطقه، ويرغبكم في الآخرة عمله»[٢].

وفي هذا المجال قال لي أستاذي في الأخلاق: ترك الناس

---

(١) مصباح الشريعة، ص٤.
(٢) الكافي، ج١، باب٣٩، مجالسة العلماء وصحبتهم.

فضيلة، والإختلاط معهم رذيلة.

وفي وصية السيد المرعشي لابنه يوصيه بترك معاشرة أبناء هذا العصر والدخول في نواديهم لئلا يحيط به الخطر من كل جانب، ويقصد خطر الجنبة الروحية في النفس، لأن خطرها أشد فتكاً بآلاف المرات من الجنبة الجسدية، فقد تداوي جسدك إن كنت مصاباً بمرض القلب أو أي مرض آخر بأي دواء، ولكن أنى لك العلاج لأمراضك الروحية وليس هذا فقط، بل يجب عليك أن تبحث عن الطبيب وهو العالم الحاذق حتى لا تهلك ووجوده نادر ليس كوجود الطبيب الجسدي فإنه كثير وقد قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «**هلك من ليس له حكيم يرشده**»[1].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «ثلاثة من مصيبات الدنيا، إحداهن: فقدان المرشد»، أي المربي والموجه والذي يشفيك من أمراضك القالبية والروحية. وكما أن للعلاج المادي آثار جانبية يتعرض لها المريض فيما لو لم يلتزم بتناول الدواء بشكل مستمر ومنظم مما يجعله عرضة لانتشار المرض أو حصول أي مرض آخر، فكذلك العلاج الروحي له موانع وآثار تترتب على المعالج إذا أخل بوصفة من وصفات العالم والطبيب الروحي الماهر.

---

(١) كشف الغمة، ج٢، ح١١٣.

مثلاً: إن مرض السيدا أو الزهري هو مرض خطير جداً بحيث يمكن حالة اللقاء الجنسي بين الطرفين أن ينتقل إلى الآخر وبسهولة، وكذلك الأمر في الأحوال الأخلاقية والروحية، فإن كانت هناك علاقة بين شخصين غير قائمة على أساس الأخلاق ومبادلة القيم من الإحترام والعطف والود والمحبة ستكون علاقة فاشلة، وأخطر من ذلك فيما لو كان هناك إنسجام بينهما مع بعض الفوارق بينهما.

مثلاً: بأن يكون زيد يملك صفتا الحلم والشجاعة وعمر لا يملكهما، وهما صديقان حميمان، فسوف تؤدي هذه الحالة إلى إنتفاء صفتا الحلم والشجاعة عند زيد وتتحولان تلقائياً إلى الغضب والجبن لزيد كما هو الحال عند عمر. فعلى المؤمن أن لا يختار في معاشرته سوى المؤمن فقط. وورد في الخبر «المؤمن مرآة أخيه المؤمن». وأعرف بعض العلماء الذين عاشوا في النجف الأشرف مدة تزيد عن السبع والعشرين سنة، وخلال هذه الفترة إنزوى لوحده غارقاً في الدرس والتدريس فوصل إلى قمة العلم والمعرفة، وهو لا يزال عاكفاً على إرشاد الناس وتوجيههم وملئهم بما استفاده، وكلما كان العالم أكثر علماً كانت إفاضاته العلمية على الناس أكثر وأفيد.

وهو يجمع بين الوعظ والإرشاد بين المسجد وخارجه وبين

الكتابة والتأليف.

ولا يخفى على المتتبع أحوال حياة العلماء من أساليب الحرص على الوقت عندهم وعدم إضاعة العمر في المباح.

فكثير منهم شرط على نفسه أن يخدم الإسلام هذا الدين الحنيف، فبقي في بيته فترة طويلة من الزمن ولا يخرج منها إلا لقضاء حاجات بيته وعياله، وهذا لا ينافي التضرع والإنقطاع إلى الله.

وأمثال هؤلاء: العلامة المجلسي الذي بقي في منزله خمس وعشرين سنة يكتب في كتابه القيم والموسوعة الضخمة التي خدم بها الطائفة خدمة جليلة مخلدة عبر الزمن وهي بحار الأنوار.

وإذا نظرنا إلى البقية منهم أمثال: الشيخ عباس القمي الذي رقى كتابه مفاتيح الجنان إلى أفضل الكتب بين الأدعية، وكان أكثر الكتب طباعةً بين الكتب العربية.

وكتابه سفينة البحار الذي قضى في تأليفه بتبويب كتاب بحار الأنوار وتهذيبه مدة عشرين عاماً من الزمن.

وكتاب الغدير للعلامة المحقق الشيخ عبد الحسين الأميني﵀ الذي يقع في عشرين مجلداً، طبع منها ١١ مجلداً ألفه خلال عشرين سنة وعانى من أجل تأليفه الكثير من المضايقات وضحى بالغالي

والنفيس من أجله، وهو يعتبر من خيرة مؤلفات الشيعة الإمامية التي تثبت أحقية أهل البيت عليهم السلام وصحة عقائدهم.

فليحاول كل واحد منا أن يخدم الطائفة بأية وسيلة وتنحصر الخدمة في العلم والمال، فالعلم لنشر الدين والمال أيضاً لنشره، فهذا أوفق طريق لسطوع نور الحق في الآفاق، وتطهير الأرض من رجس المنافقين والكفار والمشركين، وهذا ما يمكن أن ينتفع به المرء يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، قال الإمام علي عليه السلام: «إذا مات الإنسان انقطع عن عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم كان علمه الناس فانتفعوا به، وولد صالح يدعو له».

ولتكميل الفائدة في هذا الفصل ننقل كلام الشيخ محمد النراقي حيث يقول عن المشارطة ما يلي:

"هي أن يشارط النفس ويأخذ منها العهد والميثاق في كل يوم وليلة مرة ألا يرتكب المعاصي، ولا يصدر منها شيء يوجب سخط الله. لا يقصر في شيء من الطاعات الواجبة، ولا يترك ما تيسر له من الخيرات والنوافل. والأولى أن يكون ذلك بعد الفراغ من فريضة الصبح وتعقيباتها، فيخاطب النفس ويقول لها: يا نفس! ما لي بضاعة سوى العمر، ومهما فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الجديد، وقد

أمهلني الله فيه بعظيم لطفه، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوماً واحداً لأعمل صالحاً، فاحسبي أنك توفيت ثم رددت، فإياك أن تضيعي هذا اليوم، فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشترى بها كنزاً من الكنوز لا يتناهى نعيمها أبد الآباد. ويتذكر ما ورد في بعض الأخبار: من أن كل عبد خلقت له بإزاء كل يوم وليلة من عمره أربع وعشرون خزانة مصفوفة فإذا مات تفتح له هذه الخزائن، ويشاهد كل واحد منها ويدخلها، فإذا فتحت له خزانة خلقت بإزاء الساعة التي أطاع الله فيها، يراها مملوءة نوراً من حسناته فينالـه من الفرح والإستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسائل عند الملك الجبار ما لو وزع على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عن الإحساس بألم النار، وإذا فتحت له خزانة خلقت بإزاء الساعة التي عصى الله فيها، يراها سوداء مظلمة يفوح نتنها ويتغشأ ظلامها، فيناله من الهول والفزع ما لو قسم على أهل الجنة لينغص عليهم نعيمها، فإذا فتحت له خزانة بإزاء الساعة التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشيء من مباحات الدنيا، لم يشاهد فيها ما يسره ولا ما يسوؤه، وهكذا يعرض عليه بعدد ساعات عمره الخزائن، وعند ذلك يتحسر العبد على إهماله وتقصيره، ويناله من الغبن ما لم يمكن وصفه، وبعد هذا التذكر يخاطب نفسه ويقول: إجتهدي اليوم في أن تعمري خزائنك، ولا

تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تركني إلى الكسل والبطالة فيفوتك من درجات العليين ما يدركه غيرك فتدركك الحسرة والغبن يوم القيامة إن دخلت الجنة، إذ ألم الغبن والحسرة وإنحطاط الدرجة مع وجود ما فرقها من الدرجات الغير المتناهية التي نال إليها أبناء نوعك مما لا يطاق، ثم يستأنف لها وصية في أعضائه السبعة :أعني العين، الأذن، اللسان، والفرج والبطن، واليد والرجل، ويسلمها إليها لأنها رعايا خادمة لها في التجارة. ولا يتم إعمال هذه التجارة إلا بها، فيوصيها بحفظ هذه الأعضاء عن المعاصي التي تصدر عنها، وبأعمال كل منها فيما خلق لأجله، ثم يوصيها بالإشتغال بوظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة، وبالنوافل والخيرات التي تقدر عليها، وهذه شروط يفتقر إليها كل يوم، لكن إذا اعتادت النفس بتكرر المشارطة والمراقبة بالعمل بها والوفاء بحقها استغنى عن المشارطة فيها، وإن اعتادت بالعمل في بعضها لم تكن حاجة إلى المشارطة فيه، وبقيت الحاجة إليها في الباقي. وكل من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا :من ولاية، أو تجارة، أو تدريس أو أمثال ذلك، لا يخلو كل يوم منه من مهم جديد، وواقعه حادثة لها حكم جديد، ولله فيها حق، فعليه أن يجدد الإشتراط على نفسه بالإستقامة عليها والإنقياد للحق في مجاريها، وينبغي أن يوصيها بالتدبر في عاقبة كل أمر يرتكبه في

هذا اليوم والليلة. وهذه الوصية عمدة الوصايا ورأسها، وقد روي أن رجلاً أتى النبيﷺ وقال: يا رسول الله أوصني، فقال له: «هل أنت مستوصٍ إن أنا وصيتك ؟» - حتى قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلها يقول الرجل: نعم يا رسول الله ! - فقال له رسول اللهﷺ: «إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته، فإن يك راشداً فأمضه، وإن يك غياً فانته» ويظهر من هذا الخبر: أن التأمل في عاقبة كل أمر أعظم ما يحصل به النجاة فينبغي أن يؤكد العهد والميثاق في ذلك على النفس ويحذرها عن الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد المتمرد الآبق، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات، مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا وما يجري مجراه هو المشارطة وهو أول مقامات المرابطة[1].

(١) جامع السعادات، ص٩٧، ج٣.

الفصل السابع

المراقبة

قيل: أن المراقبة هي إستدامة علم العبد بإطلاع الرب عليه في جميع أحواله[1]، وقد قال أحد العرفاء: المراقبة أن يصير الغالب على العبد ذكره بقلبه، ويعلم أن الله تعالى مطلع عليه فيرجع إليه في كل حال ويخاف سطوات عقوبته في كل نفس، ومهابته في كل وقت[2]، ولأن النفس بطبيعتها تميل إلى غرائزها وشهواتها، فلا بد من الإلتفات الشديد لها في جميع الأوقات وعدم الغفلة عنها بكل الأحوال.

فقد تكون الساعة التي راقبت فيها نفسك هي التي أنقذتك من مغبات الإنحراف مع أهل الهوى وعشاقه.

ولا يمكن أن تعوّل فقط على مشارطتها، لأن مشارطتها قد لا تكفي لإنجاح عملك وطلبك تجاه خالقك وربّك.

وإنك أحياناً قد تغفل بعض الشيء، وأخرى تكون الغفلة حاصلة لديك أكثر من أي وقت مضى.

فينبغي في هذه الحال أن تفرق قبل أن تغدو سالكاً في درب المراقبة إلى أن الغفلة أحياناً لا تتنافى والمراقبة، بإعتبار أن جزءً منها فطري وهو ممدوح عقلاً وشرعاً.

وإن الغفلة المذمومة التي نعنيها ترتبط بالمسالك الشيطانية

---

(١) التعريفات والجرجاني، ص٢٠٨.
(٢) سيماء الأولياء وكراماتهم، ص٣٥٦.

المبعدة عن طريق الحق تعالى.

وواضح أنه كلما كان توجهك إلى نفسك بالحفاظ عليها من هذه الجهة أكثر، كان إرتفاعك إلى المقام المطلوب الذي يبغيه الحق تعالى لك أكبر فأكبر.

والكيفية التفصيلية لهذه المراقبة ذكرها علماء الأخلاق، ومن جملتهم الخواجه نصير الدين الطوسي أعلى الله مقامه حيث ذكر في كتابه (**أوصاف الأشراف**) في باب (**المحاسبة والمراقبة**):

وأما المراقبة فهي أن يحفظ ظاهره وباطنه لئلاّ يصدر عنه شيء يبطل به حسناته، الذي عمله بمعنى أن يلاحظ أحوال نفسه دائماً لئلاّ يقدم على معصية ظاهراً وباطناً يشغله عن سلوك طريق الحق، ويجعل ذلك نصب عينيه أبداً كما رُسِمَ: ﴿**وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ**﴾، إلى أن يصل إلى المطلوب، والله يوفق من يشاء من عباده إنه اللطيف الخبير[1].

ويقول أحد العلماء: وصف المراقبة للعبد يُحمد إذا كانت مراقبته لربه وقلبه، وذلك بأن يعلم أن الله تعالى رقيبه وشاهده في كل حال، ويعلم أن نفسه عدو له، وأن الشيطان عدو له،

---

(١) أوصاف الأشراف، ص٥١ــ٥٢.

وإنما ينتهزان الفرص حتى يحملانه على الغفلة والمخالفة، فيأخذ منها حذره بأن يُلاحظ مكامنهما وتلبيسهما ومواضع إنبعاثهما حتى يسد عليهما المنافذ والمجاري[1].

وهذا الوجوب الأخلاقي، إنما إستفادوه من وحي القرآن الكريم حيث يقول تعالى: ﴿لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاً وَلاَ ذِمَّةً﴾[2]، وقال عز من قائل: ﴿فَارْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾[4]، وقال: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾، وقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَاماً كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[5] وقال أيضاً: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ﴾[6] وقال أيضاً: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ والسنة الشريفة حيث أن الإمام علي عليه السلام يقول في دعاء كميل: «وكل سيئة أمرت بإثباتها الكرام الكاتبين الذين وكلتهم بحفظ ما يكون مني وجعلتهم شهوداً علي مع جوارحي وكنت أنت الرقيب عليّ من ورائهم والشاهد لما خفي عنهم».

---

(١) سيماء الأولياء وكراماتهم، ص٢٥٧.
(٢) سورة التوبة: الآية١٠.
(٣) سورة الدخان: الآية٥٩.
(٤) سورة النساء: الآية١.
(٥) سورة الإنفطار: الآية١١.
(٦) سورة المؤمنون: الآية٨.

وكان الإمام عليه السلام يدعو بهذا الدعاء: «اللهم زيّن أرواحنا بالمراقبة، ونوّر أشباحنا بالموافقة»[1].

ولا ريب في أن حقيقة الإيمان المتمثلة في وجود العبد الذي سلك طريق الإخلاص تفرض عليه مراقبة نفسه ليلاً ونهاراً، وذلك لكي يحصل على العمل غير المشوب بأي أمر مما لا يرضي الباري جلا وعلا.

قال الإمام الصادق عليه السلام لإسحاق بن عمار: «يا اسحاق خف الله كأنتك تراه وإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإن شككت أنه يراك فقد كفرت وإن أيقنت أنه يراك ثم بادرته بالمعصية فقد جعلته أهون الناظرين إليك»[2]. وقد سأل جبرائيل عليه السلام النبي صلى الله عليه وآله عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه»[3].

وحُكي أن زليخا لما خلت بيوسف عليه السلام فقامت فغطت وجه صنمها فقال يوسف عليه السلام: «ما لك أتستحين من مراقبة الجماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار»[4].

وحُكي عن بعض الأحداث أنه راود الجارية عن نفسها ليلاً

---

(١) سيماء الأولياء وكراماتهم، ص٢٥٧.
(٢) بحار الأنوار، ج٥، باب١٧، ح٣٢٣.
(٣) بحار الأنوار، ج٦٦، باب٣٨، ح٣٥٤.
(٤) مجموعة ورام، ج١، ص٢٣١.

فقالت: ألا تستحي؟، فقال: مما أستحي، وما يرانا إلا الكواكب، فقالت: وأين مكوكبها[1]. وقال رجل للجنيد: بما أستعين على غض البصر؟ قال: بعلمك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليك. وقال الجنيد إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل[2].

وفي الحديث القدسي: إنما يسكن جنات عدن الذين إذا همّوا بالمعاصي ذكروا عظمتي فراقبوني، والذين إنحنت أصلابهم من خشيتي، وعزتي وجلالي إني لأهمُ بعذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والعطش من مخافتي صرفت عنهم العذاب. ويُروى أن الله عز وجل قال للملائكة: «أنت موكلون بالظواهر وأنا رقيب على البواطن»[3].

ومع ذلك فقد تجد المبادرة إلى الله بالمعصية هينة على خلقه، وهذا مرجعه حقيقة إلى ضعف اليقين وقساوة القلب عندهم، وبما أن الله سبحانه وتعالى قد أخّر حسابه وعذابه لخلقه إلى يوم القيامة، فإن بعدهم الإيماني عن الساحة الإلهية إتسع جداً حتى أصبحوا لا يفكرون إلا بمأكلهم ومشربهم ومنشأ هذا إلى عدم المتابعة في أيام عمرهم لما يُرضي الله تعالى. فتراهم قد أوغرت

---

(١) المحجة، ج٨/ ١٥٦.
(٢) نفس المصدر.
(٣) المحجة، ج٨/ ١٥٦.

صدورهم من الدين والمتدينين حتى أصبحوا عمي عن الحق. وسُرقت قلوبهم منهم وصارت في يد الأعداء، هذا السبب الأول.

أما السبب الآخر أنهم يؤمنون بكل شيء يكون مادياً ملموساً ومحسوساً ولا علاقة للروح والقلب والعقل والتفكير في أحوالهم، وبأن هناك إله مطلع عليهم، ويعود هذا الأمر إلى عدم الإيمان، أي الكفر بالله الخالق العظيم.

وإذا حققنا في أنفسنا سوف نجد أن الله تعالى عندما أعطانا هذه القابليات والإستعدادات للتلقي بعد ذلك أمرنا بما يريد ثم قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾[2].

وكل هذه الأفعال المأمورون بها من قبل الله تعالى إنما تورث المعرفة أي اليقين، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ اليَقِينُ﴾[3].

وهذا العلم هو الذي يبين للعبد الطريق المنجي، قال تعالى: ﴿كَلاَّ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ

---

(١) سورة الذاريات: الآية٥٦.
(٢) سورة الذاريات: الآية٢١.
(٣) سورة الحجر: الآية٩٩..

اليَقِين * ثُمَّ لَتُسأَلُنَّ يَومَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[1].

وبعد الوصول إلى هذه الدرجة من اليقين لا يمكن إلا أن تختار ما إختاره الله تعالى على نفسك.

وقد حُكي أن لقمان قال لإبنه: «يا بني إذا راقبت الله تعالى لم تقدم على معصية أبداً لأنه بمجرد التفاتك إلى أنه يراك ويطلع عليك يمنعك الحياء من مخالفته»[2].

ثم إن هذه المراقبة لها أحوال ودرجات متعددة:

أما أحوالها فهي:

أولاً: مراقبة الطاعات: بأدائها في أول وقتها لما ورد في الحديث من أن فضل الوقت الأول على الوقت الأخير كفضل الدنيا على الآخرة، ثم أن يراقب قلبه بمعنى أن يكون حاضر القلب في عباداته وطاعاته لكي تحصل بذلك القربة إلى الله تعالى، ومراعاة آداب جميع العبادات. والطريق إلى ذلك الإلتزام بما ورد في كلام علماء الأخلاق حول ذكرها، وللعلم الآية الميرزا جواد آقا الملكي التبريزي‎ؒ كتاب في مراقبات أعمال السنة وهو من أحسن ما صُنع في هذا الأمر فعليك بالكتاب.

---

(١) سورة التكاثر: الأيات٥ــ ٨.
(٢) السير إلى الله، آملي.

ثانياً: مراقبة المعاصي: فبعد عملية التخلية أي تخلية النفس بالإقلاع عن كل ما يوجب سخط الباري من الذنوب والموبقات، والندم على ما مضى منها تبدأ المراقبة التي تعطل العبد عن إجتراح أي معصية تستوجب خروجه عن دائرة الإيمان وخلعه، من ربقة الإسلام.

وقال لقمان لإبنه: «يا بني إذا أردت أن تعصي الله فاطلب مكاناً لا يراك فيه»، إشارة منه لأنك لن تجد مكاناً لا يراك فيه فلا تعصه[1].

وكان بعض العلماء يرفع شاباً على تلاميذه كلهم، فلاموه في ذلك فأعطى كل واحد منهم طيراً وقال: «إذبحه في مكان لا يراك فيه أحد»، فجاؤوا كلهم بطيورهم وقد ذبحوها، فجاء الشاب بطيره وهو غير مذبوح، فقال له: لما لم تذبحه؟ فقال: لقولك لا تذبحه إلا في موضع لا يراك فيه أحد، ولا يكون مكان إلا يراني الواحد الأحد الفرد الصمد، فقال له: «أحسنت»، ثم قال لهم: «لهذا رفعته عليكم وميزته منكم»[2].

يقول الديلمي في «إرشاد القلوب»[3]: «ومن سعادة المرء أن

---

(١) السير إلى الله، آملي، ص١٤٨.
(٢) نفس المصدر، ص١٤٩.
(٣) إرشاد القلوب، ص١٢٩.

يُلزم نفسه المحاسبة والمراقبة وسياسة نفسه بإطلاع الله ومشاهدته لها، وأنها لا تغيب عن نظره ولا تخرج عن علمه»، إنتهى كلامه ﷺ.

واعلم أنه لو إطلع عليك أي شخص، سواء كان صغيراً أم كبيراً فإنك ستحسّن أفعالك وتحاول كل جهدك ومقدورك أن تبرز السلوكيات الجميلة لديك أمامه، هذا فضلاً عن مخافتك من حضوره ومشاهدته إياك.

فعلى العبد أن يختبر نفسه في أنه هل يستحي من الله أم أنه يستحي من خلقه، فإن كان يستحي من الله فقد عبد الله، وإن لم يكن كذلك فقد عبد غير الله، وجعل الله أهون الناظرين إليه والمطلعين عليه.

ولقد ورد في دعاء أبي حمزة الثمالي: «فلو اطلع اليوم على ذنبي غيرك ما فعلته، ولو خفت تعجيل العقوبة لاجتنبته، لا لأنك أهون الناظرين إلي وأخف المطلعين علي، بل لأنك يا رب خير الساترين، وأحكم الحاكمين، وأكرم الأكرمين، ستار العيوب، غفار الذنوب، علام الغيوب، تستر الذنب بكرمك وتؤخر العقوبة بحلمك»[1].

---

(١) مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي.

ثالثاً: مراقبة المباح: بمراعاة الآداب كأن يبدأ أكله بالملح ويختم به، وأن يأكل بعد التسمية ويختم بالتحميد، ويغسل يديه قبل الطعام وبعده، ويقعد مستقبل القبلة، وينام بعد الوضوء على يده اليمنى مستقبلاً القبلة وأن يصبر عند إبتلائه ببلية أو مصيبة كفقد ولد أو خسارة مال ويعلم أ، كل ما لديه من نعم هي عبارة عن أمانات ترجع إلى الله تعالى وسوف يُسأل عنها غداً يوم الحساب، وينبغي عليه ملاحظة الآداب الواردة في كلام أهل البيت عليهم السلام من إلتزام الصمت وعدم التكلم إلا برضا الباري جلا وعلا، والتصدق اليومي عن نفسه أو نيابة عن أهله أو أحد المؤمنين، وأن لا يخلو إشتغاله في الذكر الدائم لله والتفكر بأمره وقدرته، ليطلب بذلك الفوز العظيم بالنعيم المقيم في جوار الله عز وجل.

ورد في خاتمة (إرشاد القلوب) فيما سأل رسول الله صلى الله عليه وآله ربه ليلة المعراج: «يا أحمد هل تدري أي شيء أهنأ وأي حياة أبقى؟ قال: اللهم لا، قال: أم العيش الهنيء فهو الذي لا يفتر صاحبه عن ذكري ولا ينسى نعمتي ولا يجهل حقي، يطلب رضاي ليله ونهاره»[1].

---

(١) إرشاد القلوب، ج١، ص٢٠٣.

والناس عند المباح أصناف أربعة:

صنف ينظر إليه بعين الإعتبار والتبصر، وكيفية إرتباطه بالله تعالى عند قصد القربة إليه من خلاله، وجعل قوام الحياة به ـ كالأكل والشرب ـ ونحو ذلك، وينظر الحكمة فيه، وكيف لاءم هذا الشيء جسمه، وما في ذلك من حسن التدبير والصنع، ويتدبّر في الآلات الموصلة للأغراض التي يبغيها الإنسان، وهذا التأمل في عجائبه تعالى إنما يكون لأهل العقل من البشر.

وصنف يزهدون فيه ولا يقربون منه إلا عند الضرورة، وهم يتمنون الإستغناء عنه في كل الأحوال كما كان ذلك لبعض المعرضين عن الدنيا من أهل الدين والآخرة. أفلا ترى أنهم يتركون الأشياء مع قدرتهم على فعلها ونيلها فتجدهم قد عفوا أنفسهم عن الطعام والشراب، وما إلى ذلك من المباح واستبدلوه بالفكر والذكر الدائمين، لكي ينالوا بذلك المقام المقيم عند الرب الرحيم.

وصنف يوحد الله تعالى من خلاله لما يعتبر فيه من كمال الصنع ويرى كل شيء بعين البصيرة كما كان يراه سيد الأولياء وإمام الأتقياء علي بن أبي طالب﵁، حيث كان يقول: «ما

رأيت شيئاً إلا ورأيت الله قبله وبعده وفيه ومعه»[1]، فمشاهدة المعلول تذكر العلة، وتجذبهم نحو الله تعالى فيقتربون منه أكثر فأكثر، ويكون توقهم وشوقهم إليه في إزدياد يوماً بعد آخر، وحالهم في الخلوات والليالي حال من غاب عنه حبيبه فتراه عائفاً للدنيا قالياً لها وكما وصفهم الشاعر:

إلهي بكت للخوف منك عصابة

وما كل من يبكي لديك له ذنب

ولكنهم للقرب منك تراهم

مدامعهم تجري فيا حبذا القرب[2]

وهؤلاء هم أولياء الله الذين عرفوا الله فوحدوه التوحيد الخالي عن الشبهات.

ففي الكافي عن الصادق عليه السلام عن جده النبي صلى الله عليه وآله: «من عرف الله وعظمه منع فاه من الكلام وبطنه من الطعام، وعفى نفسه بالصيام والقيام».

قالوا: بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، هؤلاء أولياء الله.

---

(١) غرر الحكم.
(٢) الطريق إلى الله، ص١٣٩.

قال: «إن أولياء الله سكتوا فكان سكوتهم ذكراً، ونظروا فكان نظرهم عبرة، ونطقوا فكان نطقهم حكمة، ومشوا فكان مشيهم بين الناس بركة، لولا الآجال التي كتبت عليهم، لم تقرّ أرواحهم في أجسادهم خوفاً من العذاب وشوقاً إلى الثواب»[1].

ويمكن لنا أن نستفيد ذلك من أوصاف أمير المؤمنين عليه السلام حيث قال أحد أصحابه في وصفه:

وأشهد الله أني قد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله وغارت نجومه، وقد تمثل في محرابه قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم ويبكي بكاء الحزين، وهو يقول: «هيهات يا دنيا ألي تعرضت أو لي تشوقت، غري غيري لقد أبنتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعيشك حقير، وعمرك قصير، وخطرك كبير، آه من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق وعظم المورد»[2].

وصنف إتبعوا الدنيا الفانية واستسلموا لحبها، فألحقوا بمنزلة البهائم، بل إنهم جهلوا كثيراً من الأشياء التي تهتدي إليه البهائم. ولم يتوجهوا إلى فيه صلاح دنياهم وآخرتهم، فكفروا بنعمة الله فعلاً إن لم يكفروا عملاً، ككثير من أهل هذه الدنيا

---

(١) الكافي، ج٢، ١٨٦/ ٢٥.
(٢) حلية الأولياء، ج١، ص٨٤.

الذين يقيمون الدنيا ويقعدونها إذا حصل أمر يخالف هواهم ومزاجهم، ويعطلون حدود الله في ذلك، أعني أنهم لا يراعون لله ولأهله حرمة، فهذا لا يمكن أن ينتفع بعمره ولا أن يعتنق ديناً يخلصه وينجيه في آخرته، وكان حقيقة مستوجب الإنسلاخ من الإنسانية.

يقول العالم الرباني الشيخ حسين البحراني في كتابه القيم الطريق إلى الله:

«فإذا داومت على مراقبة الله وترك العلائق التي تشغلك عن التوجه إلى الله والإلتفات إليه فلابد حينئذ أن تشاهد ألطافه، وجميع عناياته بك، ورأفته وصفحه عنك، وستره عليك، وتبديله مساويك بالمحاسن. وسيئاتك بأضعافها من الحسنات فعند ذلك يرسخ حبه في قلبك، وتنبعث جوارحك لطاعته، كما تنبعث إلى طاعة كل محسن ممن هو دونه، والقلوب مجبولة على حب من أحسن إليها، فكيف بهذا المحسن العظيم الرؤوف الرحيم.

ولذلك تنزجر نفسك عن السعي فيما يخالف رضاه حياء من مقابلة الإحسان بالإساءة، أو رهبة منه عند استيلاء عظمته على قلبك، أوخوفا من انقطاع آلائه عنك، وكما يقول القائل شعراً:

إذا كنت في نعمة فارعها فإن المعاصي تزيل النعم

وكذلك عند إلتفاتك إليه ينمحي عن نظرك كل فاعل سواه، فلا ترى النافع الضار إلا الله سبحانه وتعالى، وكل أحد سواه فإنما يتصرف بإذنه»[1] انتهى كلامه ﷺ.

أقول: لا شك أن الله تعالى مطلع على أفعال العباد ونواياهم، وأن الحقائق ظاهرة له منكشفة لديه أشد الإنكشاف، وهو يراقبنا على كل حال، فالعبد الذي يراعي جانب الرقيب ويصرف همته إليه عن طريق هذه المعرفة يسمى بالموقن وهو يقسم إلى الصدّيق وإلى أصحاب اليمين ومراتبهم على درجتين:

الدرجة الأولى مراقبة المقربين:

ومعناها أن يراقب العبد عظمة الله وكبريائه، ويصير القلب مستغرقاً بملاحظة ذلك الجلال وتلك العظمة ومنكسراً تحت الهيبة، فلا يلتفت إلى غير الله مطلقاً.

ومن نال هذه الدرجة فقد يغفل عن الخلق حتى لا يبصر من يحضر عنده وهو فاتح عينيه، ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا صمم به وقد يمر على إبنه مثلا فلا يكلمه، حتى كان بعضهم

(١) الطريق إلى الله، ص١٤٤.

يجري عليه ذلك فقال لمن عاتبه: «إذا مررت بي فحركني».

ولا تستبعد هذا، فإنك تجد نظيره في القلوب المعظمة لملوك الأرض، حتى أن خدم الملوك قد لا يحسون بما يجري حولهم في مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم، بل قد يشتغل القلب بمهم حقير من مهمات الدنيا، فيغوص الرجل في الفكر فيه ويمشي، فربما يخطئ الموضع الذي قصده وينسى الشغل الذي نهض له، وحُكي عن بعضهم أنه قال: مررت بجماعة يتراقبون، وواحد جالس بعيداً منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال: ذكر الله أشهى لقلبي، فقلت: إنك وحدك؟ فقال: ما أنا وحدي معي ربي وملكاي ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾. فقلت من سبق من هؤلاء؟ فقال: من غفر الله له، فقلت: أين الطريق؟ فأشار نحو السماء وقام ومشى، وقال: أكثر خلقك شاغل عنك[1].

وقيل: عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته، ويقع هيبته على قلبك ويعظمك بلسان فعله ولا يعظك بلسان قوله.

الدرجة الثانية، درجة مراقبة الورعين من أصحاب اليمين:

وهم قوم غلب يقين إطلاع الله على ظواهرهم وبواطنهم

---

(١) المحجة البيضاء، ج٨، ص١٥٧.

وعلى قلوبهم ولم تدهشهم ملاحظة الجمال والجلال، بل يقين قلوبهم على حد الإعتدال، ولكنهم يراقبون جميع حركاتهم وسكناتهم ولحظاتهم وما هم فيه، فإن إشتبه أحدهم في توجيه العمل، أهو لله تعالى أو هو لهوى النفس ومتابعة الشيطان؟

يتوقف فيه حتى ينكشف له ذلك، فإن كان لله أمضاه وإن كان لغير الله إستحيا من الله وانكف عنه ثم يلوم نفسه على رغبتها فيه وهمها به وميلها إليه، وعزمها على سوء فعلها وسعيها في فضيحتها فإنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بعصمة وهذا التوقف واجب محتوم فإن في الخبر أنه (ينشر للعبد في كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين، الديوان الأول لِمَ، والثاني كيف، والثالث لَمن) [1].

فمعنى لم: أي لم فعلت هذا أكان عليك أن تفعله لمولاك أو ملت إليه بشهوتك وهواك، فإن سلم عنه بأن كان عليه أن يعمل ذلك لمولاه، سئل عن الديوان الثاني كيف فعلت فإن لله في كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال: كيف فعلت أبعلم محقق أم بجهل وظن، فإن سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو المطالبة بالإخلاص فيقال: لمن عملت ألوجه الله خالصاً؟ وفاء بقولك «لا إله إلا الله» فيكون

(١) المحجة البيضاء، ج٨، ص١٥٨.

أجرك على الله، أو لمراءاة خلق مثلك فخذ أجرك منه، أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفينا نصيبك من الدنيا، أم عملته بسهو وغفلة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك، وإن عملت لغيري فقد إستوجبت مقتي وعقابي إذ كنت عبداً لي تأكل رزقي وتترفه بنعمتي ثم تعمل لغيري أما سمعتني أقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾[1].

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾[2].

ويحك أما سمعتني أقول: ﴿أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾[3] وإذا عرف العبد أنه بصدد هذه المطالبات والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب، وأعد للسؤال جواباً، وليكن الجواب صواباً فلا يبدئ ولا يعيد إلا بعد التشبث ولا يحرّك جفناً ولا أنملة إلا بعد التأمل.

وقد قال النبيﷺ لمعاذ: «إن العبد ليسأل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه»[4].

وقيل: إن أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت فإن

---

(١) سورة الأعراف: الآية١٩٤.
(٢) سورة العنكبوت: الآية١٧.
(٣) سورة الزمر: الآية٣.
(٤) المحجة البيضاء، ج٨، ص١٥٩.

كان لله أمضاها. وفي حديث سعد حين أوصاه سلمان: إتقِ الله عند همِّك إذا هممت. وقال محمد بن علي: إن المؤمن وقّاف متأن عند همِّه ليس بحاطب ليل[1].

هذه المراقبة إنما يحصل عليها العبد فيما لو باشر بتعلم العلم الحقيقي وأسراره، فلا تظنن أن الجاهل يُعذر أمام الله يوم الحساب إذا لم يتعلم، هيهات بل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة وكذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم وليس ذلك إلا لأنه يعرف بآفات النفوس ومكائد الشيطان ومواضع الرذائل فيتقيها والجاهل لا يعرفها فكيف يحترز منها.

وإن من أضعف الإيمان إذا لم يقدر له التعلم، فلا يغرق بمعاشرة أهل الهوى والفساد، بل يتجه إلى مجالسة العلماء ليسألهم عن الطريق، فإن معاشرتهم تقرب من الله وتضفي الرحمة عليه، ولعله يهتدي إلى العلم بهم.

قال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) المحجة البيضاء، ج٨، ص١٥٩.
(٢) سورة النحل: الآية٤٣.

الفصل الثامن

المحاسبة

السالك إلى الله تعالى، وقبل أن يرد المراحل العليا من السلوك، لا بد له وأن يمر بقطار محاسبة النفس ويجتاز هذه المرحلة بنجاح، حتى يبلغ بذلك المكان الذي يحقق له الثبات الدائم، ويزيل العقبات وأن يتخطّى المثبطات، وأن يحصل إلى الدرجة التي تساعده على عدم الإنزلاق أبداً.

والمحاسبة تعني: أن يحاسب الإنسان نفسه في كلّ شيء حتى في عباداته والمستحب من أعماله، ولا ينبغي له أن يكون لا أبالياً في ذلك.

فقد ورد في الحديث عن الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: «ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل خيراً استزاد الله منه وحمد الله عليه، وإن عمل شراً إستغفر الله منه وتاب إليه» [1].

ويظهر لنا من الأحاديث الجمة التي وردت على لسان أهل البيت عليهم السلام عدم محبوبية الإختصار في المحاسبة على أعمال الشر التي غالباً ما تصدر من الإنسان، ولكن لا بد من محاسبة النفس في جميع أحوالها، وعدم الركون بأي شكل من الأشكال إلى أمور الدنيا التي تحول بين العبد ومحاسبته لنفسه.

---

(١) بحار الأنوار، مج١، ص١٠٢/ ومج٧٠، ص٧٢.

فعليه، يلزم أن يدأب العبد نفسه على المحاسبة وأن يشتغل ليلاً نهاراً في تحصيل القرب الإلهي والتوجه إلى (المكون) في هذه العبادات الحقيقية والتي تختصر عليه الوقت في بلوغ المقصود ونيل المراد.

من هنا، لا يعني لتضييع العمر في أتفه الأشياء المتعلقة بالجتف، باعتبار أن العبد أفنى إرادته بإرادة الباري (عز وجل)، مما كان ذلك سبباً لإيجاد روح الحب والتعلق والإنقطاع إليه عز وجل في نفسه، فأعمى عينيه من كل ما سوى الله لأنه عرف مدى تأثير الجانب الروحي وتأثيره بالعلاقة الإلهية المؤدية بطبيعة الحال إلى نشوء الإرادة التكوينية المتأتية من قبل الطاعة قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

وقال في الحديثين القدسيين: «عبدي أطعني تكن مثلي تقل للشيء كن فيكون».

وعلى هذا، من المحتم علينا أن نجد في عملنا لكي نتحرر من صدأ النفس وطغيانها وأن نتخذ لأنفسنا ملجأ وكهفاً حصيناً يطرد الأغنياء عن ساحة القدس الإلهي وذلك قبل أن تقام المحكمة الكبرى أمام الله يوم القيامة. فمن الجدير بنا أننحاكم

---

(١) سورة يس: الآية ٨٢.

أنفسك بأنفسنا في هذه الدنيا قبل أن نرد الموارد التي فيها ما فيها من الصعاب والأهوال، وما يذهلنا نحن أهلنا وأحبائنا، ولأننا بذلك نؤمن أنفسنا من الفزع الأكبر يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وقد قال رسول الله ﷺ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا».

والكثير ممن يشير على غيره بالعبادات الموصلة والمقربة بما فيها المحاسبة ولكن مع الأسف الشديد لا يجد وقتاً يلتفت فيه إلى نفسه ليؤدبها ويزجرها عن أي عمل أو تصرف تجاه الآخرين.

وهذا هو العالِم التارك لعلمه الذي يتأذى أهل النار من رائحته النتنة والكريهة، فيدخل تلامذته الجنة وهو يخلد في جهنم تحت المكان الذي يُضع فيه إبليس اللعين أي تحت الدرك الأسفل من النار، ولا حول ولا قوة إلا بالله من كل سيئة تحيط بأي عالم ولقد ورد بأنه «يغفر للعابد سبعين ذنباً، قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد».

ويا ويلتنا نحن المساكين بعد أن ننتقل إلى مرحلة العلم بهذه الأمور، ثم نرتكب بعد ذلك أية معصية بحق أنفسنا تستوجب

دخول النار أعواماً وأعوام، فلو عشنا الدهر كله ثم لقينا الله بعد ذلك ونحن مجترئين عليه ببعض أفعالنا الدانية ونظر إلينا نظرة سخط وغضب، بسبب تجرئنا عليه وعدم إحساسنا بوجوده واكتراثنا بإحاطته فضلاً عن مشاهدته إيانا.

ماذا سنفعل وما هو الموقف الذي ستكون فيه ؟ هل ستكون في موقف يحمد عليه في وجه ضاحك مستبشر، أم أنّنا سنكون في الموقف الذي يكون وجهنا فيه مسفراً، يملؤه غبار حب الدنيا.

هذا هو عطاؤنا لله، وهذه هي محبتنا له، أين النعم التي وهبنا الله تعالى إياها دون سؤال، وأين الكرم الأصيل، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ ولو لم يكن الإنسان أحسن المخلوقين لم يكن الله أحسن الخالقين كما وصف نفسه عزّ وجلّ.

ولا يخفى عليك أنه: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَـٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[1].

لا بل يعيش في ظلمات بعضها فوق بعض ولأن المقصود من العمى عمى البصيرة وليس عمى البصر قال تعالى: ﴿لاَ تَعْمَى

---

(١) سورة الإسراء: الآية٧٢.

الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى القُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[1].

نعم، تعمى القلوب بتركها ذكر الله والتوجه إلى غيره تعالى، وتعمى القلوب لعدم المحاسبة، والتقصير الكبير بكل شيء من قبل النفس ولا خلاص من سوء ذلك إلا بالتأديب والوعظ والإرشاد، وإلزامها طرق الطاعة ثم محاسبتها، محاسبة الشريك شريكه،كي لا تضيع أوقاتها بالغفلة، ولا تبيع عمرها بثمن بخس أو خسارة.

وأطلب من الله التوفيق في ذلك، وكن على ثقة به عز وجل، وأعلم بأن الكتاب والسنّة مشحونين بما يدعم ذلك. قال تعالى: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾[2].

قال الإمام الصادق﵇: «لو لم يكن للحساب محولة إلا حياء العرض على الله، وفضيحة هتك الستر على المخفيات لحقّ للمرء أن لا يهبط من رؤوس الجبال، ولا يأوي إلى عمران، ولا يأكل ولا يشرب ولا ينام، إلا عن اضطرار متصل بالتلف ومثل ذلك يفعل من يرى القيامه بأهوالها وشدائدها قائمة في كل نفس، ويعاني بالقلب الوقوف بين يدي الجبار، حينئذٍ يأخذ نفسه بالمحاسبة كأنه الى عرصاتها مدعو، وفي

---

(١) سورة الحج، الآية٤٦.
(٢) سورة الحشر: الآية١٨.

غمراتها مؤل، قال الله تعالى :﴿وإن كان مثقال حبة خردل اتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[1] [2].

إن الله تعالى مطلع على أفعال العباد ظاهرها وباطنها ولو انه أراد أن يؤاخذهم بما كسبوا في هذه الدنيا لما ترك على ظهرها من دابة ولكنه يؤخرهم إلى أجل مسمى، إلى﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ* فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلاَ نَاصِرٍ ﴾[3].

فالبدار، للهرب من الفاضحات يوم الطامة الكبرى، والسعي الحثيث في مجاهدة هذه النفس لنيل رضا الباري (جل وعلا) حتى يبني لك الله بعدها الطريق لتصبح من خلاله كائناً على بساط خدمته تعالى.

قال تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا، وإن الله لمع المحسنين﴾[4].

وبعد أن تنجح في ذلك، ينبغي أن تكون أكثر حذراً ودقة وتأملاً في عواقب الأمور، فما عليك إلا أن تبالغ في الإجتهاد بتوبيخ نفسك وتعييرها تحثيثاً في الإزدياد عليه، وأن تجعل لها

---

(١) سورة الأنبياء: الآية٤٧.
(٢) مصباح الشريعة، باب٨٥، ص١٨٦.
(٣) سورة الطارق: الآيتان ٩ــ ١٠.
(٤) سورة العنكبوت: الآية٦٩.

زماماً من الأمر، وعناناً من النهي، من صحف إبراهيم عليه السلام: «إن على العاقل ـ ما لم يكن مغلوباً على عقله ـ أن يكون له أربع ساعات: ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يحاسب فيها نفسه، وساعة يتفكر فيما صنع الله تعالى إليه، وساعة يخلو فيها بحظ نفسه من الحلال... فإن هذه الساعة عون لتلك الساعات، إستجمام القلوب توديع لها»[1].

قال أبو حامد: وعن وهب بن منبه أنّ رجلاً تعبّد زماناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فظلّ سبعين سبتاً يأكل في كل سبت إحدى عشرة تمرة، ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال: منك أُتيت لو فيك خيراً لأعطيت فنزل إليه ملك وقال: يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله تعالى حاجتك، فهكذا كانت عقوبة أولي الحزم لأنفسهم[2].

وفي الفصل الخامس من الباب الثاني في (مكارم الأخلاق) في وصية رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه:

«يا أبا ذر لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد

---

(١) وسائل الشيعة ٤٨٥/٢ حديث في باب وجوب محاسبة النفس ٩٤- ١١-٣٧٨ باب ٩٦.

(٢) المحجة البيضاء، ج٨، ص١٥٩.

من محاسبة الشريك شريكه، فيعلم من أين مطعمه، ومن أين مشربه، ومن أين ملبسه، أمن حلّ أم من حرام».

وهكذا عندما ننظر إلى ما أورده أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال نجد الإهتمام البالغ والشديد بخلاف ما وصل إليه الإنسان من الاستخفاف بمثل الالتزام بهكذا أشياء من: إلتزامه بما يترتب عليه الثواب، وتركه لما يخاف منه العقاب، ومن الواضح أن ما وردنا عنهم بالعمل به إنما هو لأجل مصلحتنا ومنفعتنا في الدنيا والآخرة.

ولأن طريقهم هو المؤدي إلى السعادة التي ليس بعدها شقاء، وكيف لا وهم حبل الله المتين، وصراطه المستقيم وبابه القويم ولا يخيب من طرق بابهم، وتوسّل بجنابهم، ولاذ بحضرتهم، فإنه سيأمن من كل آفات الدنيا والآخرة، والتعرض لأي موقف محرج من جراء المعصية لا سيّما المعاصي التي ترتبط بالترك لا بالفعل، كترك صلاة الليل التي يعدُّ تركها من الأمور التي تخلق الجفاء بين العبد وربه وذلك لبعده عن الحضرة الإلهية وعدم استجابته لما يريد الله تعالى منه تحقيقه في الخارج.

فالإبتلاء بمثل هذه الأشياء قد لا يزول من النفس بسبب ضعفها، وهذا ما يسبب نشوء حالة ضعف الرؤية بشكل تدريجي فيصل إلى الحال الذي لا يستطيع من خلاله أن يميّز

الحق من الباطل كما كان ذلك لبعض أصحاب النبيﷺ في زمانه وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فكانوا لضعف بصيرتهم لا يميّزون بينهما، حتى أدى ذلك عندهم للوقوع في مغبة الإنحراف عن طريق الحق، والإنحراف مع الباطل، فمالوا عن علي بن أبي طالبﷺ وذهبوا إلى الآخر متمسكين بالدنيا التي كان النبيﷺ يصفها بالجيفة ويصف طلابها بالكلاب، ولم يبقى مع عليﷺ من أهل الحق سوى القليل المعدودين على أصابع اليد، ولم يكن لهذه المشكلة من حلّ سوى الإلتزام بما حذّر منه النبيﷺ وأراد تحقيقه في الوحي وكان هذا بعيد، لأن النفوس الشيطانية أبت أن تجعل الولاية في عنق الإمام عليﷺ فجعلت الجامعة في عنق أبنائه حقداً عليه.

ولكي لا نخرج عن محل الكلام نعود ونقول: إن عدم محاسبة هؤلاء أنفسهم لتصرفاتهم من جهة تجاه المسلمين دعى إلى الفحش والضياع والإستبداد والطغيان وما إلى هنالك من تخريب العقائد مما أثر ذلك على المجتمع الإسلامي ككل سوى فئة قليلة جاهدت نفسها وحاربت شيطانها، حتى كانت ضمن عداد الصالحين وذلك لأنهم طلقوا الدنيا والتفتوا إلى شيء واحد وهو تهذيب أنفسهم لنيل كمالاتها والوصول إلى الحق والحقيقة.

وركزوا في جهادهم على دحر كل قوى الشر التي تتعلق بالدنيا وتميل بكثرة إلى حبها الذي هو سبب كل خطأ منذ البداية وحتى النهاية فمن هذا المنطلق عندما تستولي المغريات الدنيوية التي تضعف النفس عن الصبر، فإنها تجعل منه طعاماً للكلاب الشاردة ولا يعد الإنسان هناك إنساناً لأن الله تعالى شرط عليه أن يتم ما أخذه من الأمانة ويحفظه وهي النفس ولكنه إتبع هواه، ومال إلى النفس الأمارة بالسوء وأخذ يضرب الأخلاق والتوصيات والإرشادات بعرض الجدار، ولا مخرج له من العذابات والخزي الذي يلحقه على مستوى الدارين في قبره سوى الإعتراف بهذه الحقيقة عندها لن يجد إلا الندم على ما مضى، والمفروض أن يندم هنا في هذا العالم قبل صيرورته عظاماً يأكله الدود في ذلك العالم الآخر.

ويمكن لنا إدراك هذه الحقائق عن طريق النفس وقد يقول قائل: أما يدرك المخالفون هذه الحقائق؟ فأقول له: نعم إن كثيراً منهم من يدرك مثل هذه الأمور ولكن بسبب ضعف إيمانه بالغيب، أما أنه ينساها أو بالأصل يلتفت إليها أو أنه في طبيعته المخالفة لمطلق أوامر الله ونواهيه كما كان يزيد بن معاوية وغيره الكثير الكثير ممن دأب وأعتاد على الاستمالة إلى الشهوات منهم، وإذا نظرنا إلى الواقع يتبيّن لنا بأن كل الذين مضوا في

عشق أهوائهم وعدم مخالفة أنفسهم بل تحولوا إلى معلمين في بعض الأحيان لإبليس اللعين عبر ارتكاب بعض الطرق المؤذية بحق البشرية فأصبحوا رهائن القبور، وفي حالة يرثى لها من الشقاء والبأس والتعاسة والذل والهوان لما آلوا إليه من الظلم.

فعلى المؤمن الراغب في نيل الدرجات العليا أو على الأقل ما يجعله في دائرة الطاعة لله وليكون عمله مقبولاً لديه،وغير مشوب بأي نوع من أنواع الغفلة أن يحاسب نفسه (فلمحاسبة النفس الدور الأول في تنقيتها، وتقويتها وتوجيهها وجهة خيرة، فالنفس كما يذكر الكتاب العزيز أمّارة بالسوء ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي[1]﴾ ويقول الإمام زين العابدين عليه السلام في مناجاته الثانية في وصف النفس: «إلهي إليك أشكو نفساً بالسوء أمارة وإلى الخطيئة مبادرة وبمعاصيك مولعة، ولسخطك متعرضة، تسلك بي مسالك المهالك، وتجعلني عندك أهون هالك، كثيرة العلل، طويلة الأمل، إن مسّها الشر تجزع، وإن مسّها الخير تمنع، ميالة إلى اللهو واللهو، مملوءة بالغفلة والسهو، تسرع بي إلى الحوبة، وتسوفني التوبة».

إذن نفسٌ هذه حالها، وهذه صفاتها، أليس من الأجدر بنا أن نحاسبها كل يوم من أجل تهذيبها وتقويمها، والإبتعاد بها

---

(١) سورة يوسف: الآية٥٣.

عن مسالك المهالك، ومورد الخطيئة والسوء وقودها إلى مسالك النجاة وموارد الطاعة لله عز وجل، على أنّ لزوم الطاعة لا يصح إلا مع لزوم المحاسبة للنفس بأن يحاسبها في أفعالها وحركات جوارحها، هل أنها لا زالت باقية على حالها في المعصية أم أنها ازدادت مراقبة لأحكام الله تعالى، لا سيما حركات اللسان في التكلم بما لا يعني، والخوض في الباطل والكذب والغيبة والافتراء، والتعرض لأعراض المؤمنين والفحش والإيذاء وغيرها. فإن رآها كلها على ما كان فليعلم أنّ ذلك من سوء عمله، وكانت ظلمة ذنوبه قد أثرت عليه، بحيث أن قلبه صاد طريقاً لا يجيء منه إلا الشر، وإن رأى الزيادة فيها من الإبتعاد عن المعصية، فليشكر الله على ذلك، وليبادر إلى مراقبتها ومحاسبتها في كل وقت حتى لا يؤدي إهماله لها إلى إرتكاب أبشع أنواع الرذائل المنبوذة، وذلك بأن يحضر قلبه وعقله وجميع جوارحه لعالم الغيب جل جلاله وللملكين الحافظين، وأن يكون توجهه دائماً إلى الله، بحيث لا يغيب عن ذلك العالم بشكل مجمل، وأن يعاتب نفسه عتاباً شديداً وينهرها إنتهاراً كبيراً حفاظاً لها عن الوقوع فيما لا يحمد عقباه، وأن يقف على قدم الخوف والرجاء في ذلك ويقول مخاطباً ربه عز وجل: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من

الظالمين، ربِّ إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين، ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار، ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد، وأن يقول لنفسه: اجتهدي اليوم في أن تعمري خربتك ولا تدعيها فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملك الأبد، ولا تميلي إلى الكسل والدّعة والاستراحة فيفوتك من درجات عليين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك حسرته لا تفارقك وإن دخلتي الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق.

وقال بعضهم: هب أن المسيء قد عُفي عنه أليس قد فاته ثواب المحسنين أشار به إلى الغبن والحسرة، وقد قال تعالى: ﴿يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن﴾[1][2].

وفي كتاب الكافي للكليني بإسناده إلى أبي النعمان عن أبي جعفر عليه السلام قال: «يا أبا النعمان ولا يضرّنك الناس من نفسك فإن الأمر يصل إليك دونهم ولا تقطع نهارك بكذا وكذا فإن معك من يحفظ عليك عملك سيئاً أو حسناً فإني لا أرى شيئاً أسرع

---

(١) سورة التغابن: الآية٩.
(٢) تنبيه الخواطر، ج١، ص٢٣٣.

دركاً ولا أسرع طلباً من حسنة محدثة لذنب قديم»[1].

فقد تكون المحاسبة لذنب مضى غير موجودة تهاوناً به واعتماداً على المحاسبة الجديدة، فهذا أمر لا يكفي لصحتها، بل لا بد من إحضار صور كل الذنوب التي إرتكبتها فيما مضى وأن تجعل محكمة لنفسك تحاسبها على كل ما مرّ منها ولكي لا تترك أثراً لذنب فيها، عليك أن تخليها حتى تجعلها محلاً لسطوع النور وكي يتحلّى بالفضائل والملكات..

ويمكن انقسام هذه المحاسبة إلى قسمين:

الأول: المحاسبة الظاهرية:

بمعنى أن يعين في كل يوم وليلة وقتاً يحاسب فيه نفسه بموازنة طاعاته ومعاصيه ليعاتب نفسه ويقهرها لو وجدها في هذا اليوم والليلة مقصرة في طاعة واجبة، أو مرتكبة لمعصية، ويشكر الله سبحانه لو أتت بجميع الواجبات ولم يصدر منها معصية ويزيد الشكر لو صدر منها شيء من الخيرات والطاعات المندوبة. وطريقه إلى ذلك أن يستأنف الوصية في أعضائه السبعة: وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل فإنها رعايا خادمة لنفسه، أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من

---

(١) الكافي، ج٢، ص٤٥٤.

ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الإحتقار، بل عن كلّ فضولٍ مستغني عنه، فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام، ثم إذا صرفها عن هذا لم يقنع به حتى يشغلها بما فيه صلاحها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الإعتبار والنظر إلى أعمال الخير للإقتداء والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومطالعة كتب الحكمة للإتعاظ والإستفادة وهكذا ينبغي أن يفعل في كل عضو لا سيما اللسان والبطن، وأما اللسان فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤونة عليه في الحركة وجنايته عظيمة بالغيبة والكذب والنميمة، ومذمّة الخلق والطعن واللعن والدعاء على الأعداء، والمماراة في الكلام وغير ذلك فهو يتصدر ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير وتكرار العلم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين، فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول نهاره إلا في الذكر، فنطق المؤمن ذكر وصمته فكر ونظره عبر ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]، فيحذرها طريق الإهمال ويعظها كما يعظ العبد الآبق المتمرد، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات، مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها وذكّر فإن الذكرى

---

(١) سورة ق: الآية١٨.

تنفع المؤمنين..

روى شدّاد بن أوس عن النبيﷺ أنه قال: «الكيّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والأحمق من اتبع نفسه هواها وتمن على الله، (دان نفسه أي حاسب نفسه). ويوم الدين هو يوم الحساب وقوله تعالى: ﴿أننا لمدينون﴾ أي لمحاسبون».

الثاني: المحاسبة الباطنية:

فإنها أشد من سابقتها تتشعّب فيها الهموم حتى ولو لم يكن عاصياً لله تعالى، بل إن قربها من الله يزيدها إزدراءً أكبر ومحاسبة أشد لنفسه فإن وقع في القلب أي أمر مباح غير أنه لا يتعلق بالله، نهر نفسه واستعاد سعادتها الموجودة في التعلق بالله وحده والإنقطاع إليه عز وجل، وهكذا يفعل أمثال أولئك الأبطال شوقاً إلى الله، وقطعاً لمادة النفس وتعويضاً لما جرى له من النقصان.

فهم يقطعون نهارهم بالذكر والفكر والمحاسبة فيما يوجب رضا سيدهم ومولاهم ولم ينظروا إلى الدنيا نظرة حب أبداً.

وإنما يصرفون همهم لتحصيل أسباب الكمال ليكونوا من أهله.

فيحثّوا أنفسهم بكافة الطرق والوسائل على إثبات الحق

سبحانه وتعالى في أنفسهم، لكي يحصلوا بذلك على الرضا والمحبة والإخلاص ولتأتي المعرفة بعدها.

ويخشون ربهم بالغيب فيحاسبون أنفسكم عند غفلتهم عنه لو للحظة مستوجبين بذلك الجنان العليا لهم فيها ما يشاؤون فيختارون جوار الله عز وجل ليكونوا مع الشهداء وحسن أولئك رفيقاً. قال الله تعالى:﴿مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ* لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيد﴾[1].

وقال: ﴿تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الكَافِرِينَ النَّارُ﴾[2].

وذكر في أوصافهم كلاماً كثيراً منه ما قاله الحسن﵀:

«لقد أدركت أقواماً وصحبت طوائف منهم ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل، ولا يتأسّفون على شيء منها أدبر ولهي كانت أهون في أعينهم من هذا التراب الذي تطأونه بأرجلكم، إن كان أحدكم ليعيش عمره كله ما طوى لأحدهم ثوب، ولا أمر أهله بضعة طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئاً قط، وأدركتهم عاملين بكتاب الله وسنة نبيهم، إذا جنّهم

---

(١) سورة ق: الآية٣.
(٢) سورة الرعد: الآية٣٥.

الليل فقيام على أطرافهم يفترشون وجوههم تجري دموعهم على خدودهم، يناجون ربهم في فكاك رقابهم، إذا عملوا الحسنة فرحوا بها، ودأبوا في شكر الله، وإذا عملوا السيئة حزنتهم وسألوا الله أن يغفرها والله ما زالوا على ذلك»[1].

وكان بعضهم كثير البكاء يقول في بكائه: «إلهي أنا الذي كلما طال عمري زادت ذنوبي أنا الذي كلما هممت بترك خطيئة عرضت لي شهوة أخرى، ويلي خطيئة لم تبل[2]، وصاحبها في طلب أخرى، ويل لي إن كانت النار مقيلاً لي ومأوى، ويلي إن كان المقامع[3] لرأسي تهيأ».

وقال آخر: سمعت بالكوفة في بعض الليالي عابداً يناجي ربه وهو يقول: «يا رب وعزتك وجلالك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا بنظرك مستخف ولكن سوّلت لي نفسي الأمارة، وغرّني سترك المرخى عليّ فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي، فمن عذابك الآن من يستنقذني، أو بحبل من أعتصم إن قطعت حبلك عني واسوأتاه من الوقوف بين يديك غداً، إذن قيل للمخفين جوزوا

---

(١) تنبيه الخواطر، ج١، ص٢٣٧.
(٢) تبل، من البلى، أي لم يمحُ أثر الذنب السابق وهو في طلب ذنب آخر.
(٣) المقامع، جمع المقمعة وهي العمود من حديد أو خشب.

وللمثقلين حطّوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي، وكلما طال عمري كثرت معاصيّ فإلى متى أتوب وإلى متى أعود إما آن لي أن أستحي من ربي، فهكذا ينبغي أن يخاطب الإنسان نفسه ويعاتبها، وينبهها ويحاسبها، فمن أهمل المعاينة والمحاسبة والتنبيه لم يكن لنفسه مراعياً ويوشك أن لا يكون الله تعالى عنه راضياً»[1].

(١) تنبيه الخواطر، ص٢٤٩.

الفصل التاسع

شذرات من كلام أمير المؤمنين عليه السلام والعرفاء

قال الإمام علي عليه السلام: «واعلموا أن عباد الله المستحفظين علمه، يصونون مصونه، ويفجّرون عيونه، يتواصلون بالولاية، ويتلاقون بالمحبّة، ويتساقون بكأس روية، ويصدُرون بريّه، لا تشوبهم الرّيبة، ولا تُسرع فيهم الغيبة، على ذلك عقد خلقهم وأخلاقهم، فعليه يتحابون، وبه يتواصلون، فكانوا كتفاضل البدر يُنتقى فيُؤخذ منه ويلقى، قد ميّزه التخليص، وهذّبه التمحيص».

أقول: إن من أحد أفراد الإخلاص الحقيقي أن يلاحظ العبد هذه الصفات ويوقعها في حيّز العمل حتى يُمنح بذلك مقام القرب الإلهي الذي يبغي محاولة تحقيقه، ولن يتحقق ذلك إلاّ عبر تلقي هذه المعارف والالتزام بها، وتوقي ما ينافيها حتى لا يتحول إخلاص العبد إلى عملٍ مشوبٍ بالشرك والرياء الأمر الذي يجلب له البعد عن مقام القرب.

فعليه أن يطالع نفسه، ويقتدي بالسلف الصالح من الأولياء والعرفاء الذين اصطفاهم الله لنفسه وانتخبهم لولايته وهم محمد وآل محمد الطيّبين الطاهرين أصحاب العرفان الأوائل وقد صرّح بهذا الأمر ابن أبي الحديد في شرحه على النهج[1] عندما قال: «واعلم أن الكلام في العرفان، لم يأخذه أهل الملة الإسلامية، إلاّ عن هذا الرجل، ولعمري لقد بلغ منه إلى أقصى

(١) نهج البلاغة، ج١١، ص٥٠.

الغايات، وأبعد النهايات»، ثم يبدأ بذكر علامات وصفات العارفين فيقول: والعارفون هم القوم الذين اصطفاهم الله تعالى، وانتخبهم لنفسه، واختصّهم بأنسه أحبّوه فأحبّهم، وقربوا منه فقرب منهم، قد تكلّم أرباب هذا الشأن في المعرفة والعرفان، فكل نطق بما وقع له، وأشار إلى ما وجده في وقته.

وكان أبو علي الدقّاق يقول: من إمارات المعرفة حصول الهيبة من الله، فمن ازدادت معرفته ازدادت هيبته، وكان يقول: المعرفة توجب السكينة في القلب، كما أن العلم يوجب السكون، فمن ازدادت معرفته ازدادت سكينته.

وسئل الشبلي عن علامات العارف، فقال: ليس لعارف علامة، ولا لمحبٍّ سكون، ولا لخائف قرار، وسئل مرة أخرى عن المعرفة، فقال: أولها الله وآخرها ما لا نهاية له.

وقال أبو حفص الحداد: منذ عرفتُ الله ما دخل قلبي حق ولا باطل، وقد أشكل هذا الكلام على أرباب هذا الشأن، وتأوله بعضهم، فقال: عند القوم أن المعرفة توجب غيبة العبد عن نفسه لاستيلاء ذكر الحق عليه، فلا يشهد غير الله، ولا يرجع إلاّ إليه، وكما أن العاقل يرجع إلى قلبه وتفكره وتذكره فيما يسنح له من أمر، أو يستقبله من حال، فالعارف رجوعه إلى ربه، لا إلى قلبه، وكيف يدخل المعنى قلب من لا قلب له!

وسئل أبو يزيد البسطامي عن العرفان، فقال: ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً﴾[1] وهذا معنى ما أشار إليه أبو مغص الحدّاد.

وقال أبو يزيد أيضاً: للخلق أحوال، ولا حال للعارف، لأنه ... رسوماً وفني هو، وصارت هويته غيره، وغيبته آثاره في آثار غيره، قلت: وهذا هو القول بالاتحاد الذي يبحث فيه أصل النظر[2].

-أقول: لا شكّ بأنّ هذا كلام باطل باعتبار أن الحالة التي يصل إليها العارف بالله هي الانقطاع إلى الله سبحانه ونسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ولأن أعماله استوت في الظاهر والباطن، فكيف يمكن القول بأنه لا حال له ونحو ذلك وهذا هو معنى القول بالاتحاد الذي منعه علماؤنا مطلقاً فقالوا تعليقاً على ذلك: «ولا يتحد بغيره لامتناع الاتحاد مطلقاً»[3].

وقد ذكروا بأنه: «لا يجوز أن يكون الباري في محل».

أي لا يمكن حلوله في شيء أصلاً وإلاّ إذا أمكن حلوله في شيء لافتقر إليه، والدليل على أن الحلول يستلزم الافتقار إلى

---

(١) سورة النمل: الآية ٣٤.
(٢) نهج البلاغة، ج١١، ص٥١.
(٣) النافع يوم الحشر، العلامّة الحلي، ص٥٦.

المحل، إن المعقول من الحلول هو الحصول على سبيل التبعية، وهو يستلزم الافتقار إلى المحل، هذا خلاصة ما قيل[1].

وقال الحسين بن منصور الحلاّج: علامة العارف أن يكون فارغاً من الدنيا والآخرة وقال محمد بن عبد الله التستري: غاية العرفان شيئان: الدهش والحيرة، وقال ذو النون: أعرفُ الناس بالله أشدّهم غيراً فيه.

وقيل لأبي يعقوب السوسي: هل يتأسف العارف على شيء، غير الله؟

فقال: وهل يرى شيئاً غيره، ليأسف عليه!

(إشارة منه إلى الرؤية الباطنية الإيمانية).

وقال يحيى بن معاذ: يخرج العارف من الدنيا، ولا يقضي وطره من شيئين: بكائه على نفسه، وحبّه لربه.

وكان ابن عطاء يقول: أركان المعرفة ثلاثة: الهيبة، والحياء، والأنس، وقال بعضهم: العارف أنس بالله فأوحشه من خلقه، وافتفر إلى الله فأغناه عن خلقه، وذلّ لله فأعزّه في خلقه، وقال بعضهم: العارف فوق ما يقول، والعالم دون ما يقول.

وقال أبو سليمان الدارني: إن الله يفتح للعارف على فراشه،

---

(١) النافع يوم الحشر، شرح أبي الفتح بن مخدوم الحسيني، ص٢٢٣.

ما لا يفتح للعابد وهو قائم يصلي، وكان رُوَيم يقول: رياء العارفين أفضل من إخلاص العابدين.

أقول: إن هذا الكلام فيه نظر باعتبار أنه يغفر للجاهل سبعين ذنباً قبل أن يغفر للعالمُ العارف ذنباً واحداً.

وسئل أبو تراب الخشبي عن العارف، فقال: هو الذي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء، وقال بعضهم: المعرفة أمواج ترفع وتحط.

وسئل يحيى بن معاذ عن العارف فقال: الكائن البائن.

وقيل: ليس بعارف من وصف المعرفة عند أبناء الآخرة، فكيف عند أبناء الدنيا.

وقال محمد بن الفضل: المعرفة حياة القلب مع الله[1].

وسئل أبو سعيد الخرّاز: هل يصير العارف إلى حال يجفو عليه البكاء؟ قال: نعم، إنما البكاء في أوقات سيرهم إلى الله، فإذا صاروا إلى حقائق القرب، وذاقوا طعم الوصول، زال عنهم ذلك.

واعلم إن إطلاق أمير المؤمنين عليهم لفظة (الولاية) في قوله: «يتواصلون بالولاية، ويتلاقون بالمحبة»يستدعي الخوض في

---

(١) نهج البلاغة، ج١١، ص٥٢.

مقامين جليلين من مقامات العارفين:

المقام الأول (الولاية):

الولاية: وهو مقام جليل، قال الله تعالى ﴿أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١).

وقد جاء في الخبر الصحيح عن النبيﷺ يقول الله تعالى: "من آذى لي ولياً فقد استحلّ محارمي، وما تقرب إليّ العبد بمثل أداء ما فرضت عليه، ولا يزال يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه ولا ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض نفس عبدٍ مؤمن يكره الموت وأكره مساءته، ولا بدّ له منه.

واعلم أن الولي له معنيان: **أحدهما** (فعيل) بمعنى (مفعول) كقتيل وجريح، وهو من يتولى أمره كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ (٢).

وثانيهما (فعيل) بمعنى (فاعل) كنذير وعليم، وهو الذي يتولى طاعة الله وعبادته فلا يعصيه، ومن شرط كون الولي ولياً، لا يعصي مولاه وسيده، كما أن من شرط كون النبي نبياً العصمة، فمن ظنّ فيه، أنه من الأولياء، ويصدر عنه ما للشرع

---

(١) سورة يونس: الآية٦٢.
(٢) سورة الأعراف: الآية١٩٦.

فيه اعتراض، فليس بولي عند أصحاب هذا العلم، بل هو مغرور مخادع.

وقال إبراهيم بن أدهم لرجل: اعتبر أن تكون لله ولياً ؟ قال: نعم، قال: لا ترغب في شيء من الدنيا ولا من الآخرة أفرِّغ نفسك لله، وأقبل بوجهك عليه ليقبل عليك ويواليك.

وقال يحيى بن معاذ في صفة الأولياء: هم عباد تسربلوا بالأنس بعد المكابدة، وادرعوا بالروح بعد المجاهدة، بوصولهم إلى مقام الولاية.

المقام الثاني (المحبة):

قال الله سبحانه: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ (١).

والمحبة عند أرباب هذا الشأن حالة شريفة.

قال أبو يزيد البسطامي: المحبة استقلال الكثير من نفسك، واستكثار القليل من حبيبك.

وقال أبو عبد الله القرشي: المحبة أن تهب كلّك لمن أحببت، فلا يبقى لك منك شيء، وأكثرهم على نفي صفة العشق، لأن

---

(١) سورة المائدة: الآية ٥٤.

العشق مجاوزة الحد في المحبة، والبارئ سبحانه أجلُ من أن يوصف بأنه قد تجاوز أحد الحدّ في محبّته[1].

سئل الشبلي عن المحبة، فقال: هي أن تغار على المحبوب أن يحبّه أحد غيرك.

وقال الجنيد: سمعت الحارث المحاسبي، يقول: المحبة إقبالك على المحبوب بكليتك، رغم إيثارك له على نفسك، ومالك وولدك، ثم موافقتك له في جميع الأمور سراً وجهراً، ثم اعتقادك بعد ذلك أنك مقصر في محبته، ويقال: إن الله تعالى، أوحى إلى بعض الأنبياء: إذا اطلعت على قلب عبد فلم أجد فيه حبّ الدنيا والآخرة، ملأته من حبّي[2].

وقال بعضهم: من أراد أن يكون محباً، فليكن كما حكي عن بعض أهل الهند أنه أحب جارية، فرحلت عن ذلك البلد، فخرج الفتى في وداعها، فدمعت إحدى عينيه دون الأخرى، فغمض التي تدمع أربعاً وثمانين سنة ولم يفتحها، عقوبة لأنها لم تبكِ على فراق حبيته، وأنشدوا في هذا المعنى:

بكت عيني غَداةَ البينِ دمعاً ... وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاقبتُ التي بَخِلتْ علينا ... بأن غمّضتها يومَ التقينا

---

(١) نهج البلاغة، ج١١، ص٥٣.
(٢) نهج البلاغة، ج١١، ص٥٣ـ ٥٤.

وقيل: إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: إني حرّمت على القلوب أن يدخلَها حبي وحبّ غيري.

وقيل: المحبة إيثار المحبوب على النفس، كامرأة العزيز كما أفرط بها الحب قالت، ﴿أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾[1]، وفي الابتلاء، قالت: ﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].فوركت (أي حملت) الذنب في الابتداء عليه، ونادت في الانتهاء على نفسها بالخيانة[3].

ثمّ نعود إلى تفسير ألفاظ الفصل قوله: «يصونون مصونه».

أي يكتمون من العلم الذي استحفظوه ما يجب أن يُكتم، ويفجرون عيونه، يظهرون منه ما ينبغي إظهاره وذلك أنه ليس ينبغي إظهار كل ما استودع العارف من الأسرار، وأهل هذا الفن يزعمون أنّ قوماً منهم عجزوا عن أن يحملوا بما حُمّلوه، فباحوا به فهلكوا، منهم الحسين بن منصور الحلاّج، ولأبي الفتوح الجارودي المتأخر أتباع يعتقدون فيه مثل ذلك[4].

قوله: «ويتساقون بكأس رويّة»، أي بكأس المعرفة، والأنس

---

(١) سورة يوسف: الآية٥١.
(٢) سورة يوسف: الآية٢٥.
(٣) نهج البلاغة، ج١١، ص٥٦.
(٤) نهج البلاغة، ج١١، ص٥٦.

بالله، يأخذ بعضهم عن بعض العلوم والأسرار، فكأنهم شَرْبٌ يتساقَوْن بكأس من الخمر، قال: «ويصدرون بريّة» يُقال: من أين ريتكم؟ مفتوحة الراء، أي من أين ترتوون الماء؟

قال: "لا تشوبهم الرّيبة، أي لا تخالطهم الظنّة والتهمة، ولا تسرع فيهم الغيبة، لأن أسرارهم مشغولة بالحق على الخلق".

قال: «على ذلك عقد خَلْقِهِمْ وأخلاقهم»، الضمير في «عقد» يرجع إلى الله تعالى، أي على هذه الصفات والطبائع عقد الخالق تعالى، خلقتهم وخُلُقهم، أي هم متهيئون لما صروا إليه، كما قال عليه السلام: «إذا أرادك لأمر هيّأك له»[1].

قال عليه السلام: «فعليه يتحابون، وبه يتواصلون» أي ليس حبهم بعضهم بعضاً إلاّ في الله، وليست مواصلتهم بعضهم بعضاً إلاّ لله، لا للهوى، ولا لفرضٍ من أغراض الدنيا.

قوله عليه السلام: «فكانوا كتفاضل البذر» أي مثلهم مثل الحب الذي ينتقى للبذر، يستصلح بعضه، ويسقط بعضه.

قد ميّزه التخليص: قد فرق الانتقاء بين جيده ورديئه، وهذّبه التمحيص، قال النبي عليه السلام: «إذا مرض ليمحص الخطايا كما

---

(١) نهج البلاغة، ج١١، ص٥٧.

تمحص النار الذهب»، أي كما تخلص النار الذهب مما يشوبه[1].

٢١٤_ ومن كلام له عليه السلام يصف أحوال تقي

(١) نهج البلاغة، ج١١، ص٥٨.

عارف بالله(*)

قَدْ أَحْيَا عَقْلَهُ، وأَمَاتَ نَفْسَهُ؛ حَتَّى دَقَّ جَلِيلُهُ، ولَطُفَ غَلِيظُهُ، وبَرَقَ لَهُ لامِعٌ كَثِيرُ البَرْقِ، فَأَبَانَ لَهُ الطَّرِيقَ، وسَلَكَ بِهِ السَّبِيلَ، وتَدَافَعَتْهُ الأَبْوَابُ إِلَى بَابِ السَّلامَةِ، ودَارِ الإِقَامَةِ، وثَبَتَتْ رِجْلاهُ بِطُمَأْنِينَةِ بَدَنِهِ فِي قَرَارِ الأَمْنِ والرَّاحَةِ، بِمَا اسْتَعْمَلَ قَلْبَهُ، وأَرْضَى رَبَّهُ.

الشرح: يصف العارفَ، يقول: قد أحيا قلبه بمعرفة الحقّ سبحانه، وأمات نفسه بالمجاهدة، ورياضة القوّة البدنية بالجوع والعطش والسهر والصبر على مشاق السفر والسياحة

حتى دقّ جليلُه، أي حتى نَحَل بدنُه الكثيف. ولطف غليظُه، تلطفت أخلاقه وصفت نفسه، فإن كدر النفس في الأكثر إنما يكون من كدر الجسد والبطنة ـ كما قيل ـ تذهب الفطنة.

---

* رواه الأمدي في غرره ص٢٣٣.

فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار

ويقول أرباب هذه الطريقة: مَن لم يكن في بدايته صاحبَ مجاهدة لم يجد من هذه الطريقة شَمّة.

وقال عثمان المغربي الصوفيّ: مَن ظَنّ أنه يُفتحُ عليه شيء من هذه الطريقة، أو يكشف له عن سرٍ من أسرارها من غير لزوم المجاهدة، فهو غالط.

ومن كلامهم: مَن زيّن ظاهرَه بالمجاهدة حسّن الله سرائِرَه بالمشاهدة.

وقال الحسن الفرازيني: هذا الأمر على ثلاثة أشياء: ألا تأكل إلا عند الفاقة[1]، ولا تنام إلا عند الغَلبة، ولا تتكلّم إلا عند الضرورة.

وجاء في الحديث أن فاطمة جاءت إلى رسول الله ﷺ بكِسرة خُبز، فقال: ما هذه؟ قالت: قُرص خبزته، فلم تطب نفسي حتى أتيتُك منه بهذه الكِسرة، فأكلها، وقال: «أمّا إنّها لأوّل طعام دخل فم أبيك منذ ثلاث».

وكان يقال: ينابيع الحكمة من الجوع، وكسر عادية النفس بالمجاهدة.

---

(١) الفاقة: الحاجة والفقر.

وقال يحيى بن مُعاذ: لو أن الجوع يُباع في السوق لما كان ينبغي لطلاّب الآخرة إذا دخلوا السُّوق أن يشترُوا غيرَه.

وقال سهل بن عبد الله: لما خَلق الله الدّنيا جعل في الشّبع المعصية والجهل، وجعلَ في الجوع الطاعة والحكمة.

وقال أبو سلمان الدّارانيّ: مفتاح الدّنيا الشّبَع، ومفتاح الآخرة الجوع.

قالوا: واشتهَى أبو الخير العسقلانيّ السمك سنين كثيرة، ثم تهيأ له أكلُه من وجهٍ حلال، فلما مدّ يدَه ليأكل أصابت إصبعه شوكة من شوك السمك، فقام وترك الأكل، وقال: يا ربِّ، هذا لمن مدّ يده بشهوة إلى الحلال، فكيف بمن مدّ يدَه بشهوة إلى الحرام.

وفي الكتاب العزيز: ﴿وأَمّا مَنْ خافَ مَقامَ رَبِّهِ ونَهَى النّفْسَ عَنِ الْهَوى فَإِنّ الْجَنّةَ هِيَ الْمَأْوى﴾[1]، فالجملة الأولى هي التقوى، والثانية هي المجاهدة.

وقال النبيّ ﷺ: «أخوَفُ ما أخاف على أمتي اتّباع الهوى وطول الأمل، أما اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فيُنسي الآخرة».

---

(١) سورة النازعات: الآية ٤٠ و٤١.

وسئل بعضُ الصوفيّة عن المجاهدة، فقال: ذَبح النفس بسيُوف المخالفة.

وقال أبو عليّ الرّباطيّ: صحبت عبد الله المروزيّ، وكان يدخل البادية قبل أن أصحَبه بلا زاد؛ فلما صحبتُه قال لي: أيُما أحبُّ إليك؟ تكون أنتَ الأمير، أم أنا؟ قلت: بل أنت، فقال: وعليك الطاعة؟ قلت: نعم، فأخذ مخلاةً ووضع فيها زاداً، وحملها على ظهره، فكنت إذا قلت له: أعطني حتى أحملها، قال: الأمير أنا، وعليك الطاعة، قال: فأخذَنا المطرُ ليلة، فوقف إلى الصّباح على رأسي، وعليه كساء يمنع عنيَ المطر، فكنت أقول في نفسي، يا ليتني مت ولم أقل له: أنت الأمير، ثم قال لي: إذا صحبت إنساناً فاصحبه كما رأيتَني صحبتك. قال أبو الطيّب المتنبّي:

ذرِيني أنل ما لا يُنال من العُلا
فصعبُ العُلا في الصّعبِ والسّهلُ في السهلِ
تريدين إدراكَ المعالي رخيصةً
ولا بُدّ دون الشّهد من إبَر النّحل

وله أيضاً:

وإذا كانَتِ النُفوسُ كِبَاراً تعبت في مُرادها الأجسام

ومن أمثال العامة: من لم يركب الأخطار، لم ينل

الأوطار[1].

واعلم أنّ تقليلَ المأكول لا ريب في أنّه نافعٌ للنفس والأخلاق، والتجربة قد دلّت عليه، لأنّا نرى المكثِرَ من الأكل يغلبه النّوم والكسل وبلادة الحواسّ.

وأيضاً فإنّ كثرةَ المأكل تُزيل الرّقّة، وتورث القَساوة، والقياس يقتضي ذلك؛ لأنّ كثرة المزاوَلات، سبب لحصول الملكات، فالنفس إذا توفّرت على تدبير الغِذَاء وتصريفه، كان ذلك شغلاً شاغلاً لها، وعائقاً عظيماً عن انصبابها إلى الجهة الرُوحانية العالية، ولكن ينبغي أن يكون تقليل الغذاء إلى حَدٍّ يوجب جوعاً قليلاً، فإنّ الجوع المفرِط يورث ضعف الأعضاء الرئيسة واضطرابها، واختلال قُواها، وذلك يقتضي تشويشَ النّفس واضطراب الفكر، واختلال العقل، فإذن لا بدّ من إصلاح أمر الغذاء، بأن يكون قليلَ الكميّة، كثير الكيفيّة.

ويجب أن يكون الغذاء شديدَ الإمداد للأعضاء الرئيسَة، لأنها هي المهمّة من أعضاء البَدَن وما دامت باقيةً على كمال حالها لا يظهر كثير خللٍ من ضعف غيرها من الأعضاء.

واعلم أن قوله ﷺ: «وبرق له لامعٌ كثير البرق» هو حقيقة

---

(١) الأوطار: جمع وَطَر وهو الغاية والبغية.

مذهبِ الحكماء، وحقيقة قول الصوفيّة أصحاب الطريقة والحقيقة؛ وقد صرح به الرئيس أبو علي بن سينا في كتاب «الإشارات» فقال في ذكر السالك إلى مرتبة العرفان: ثم انّه إذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما عنّت له خُلسات من اطّلاع نور الحق إليه لذيذة كأنها بروقٌ تُومض إليه ثم تخمَد عنه، وهي التي تسمّى عندهم أوقاتا... »، فهذه ألفاظ الحكيم أبي علي بن سينا في «الإشارات»، وهي كما نراها مصرّح فيها بذكر البُرُوق اللامعة للعارف.

وقال القشيريّ في الرّسالة لما ذكر الحال والأُمور الواردة على العارفين، قال: هي بروق تلمع ثم تخمد، وأنوار تبدو ثم تخفى، ما أحلاها لو بقيت مع صاحبها ثم تمثّل بقول البحتريّ:

خَطَرَت في النّوم منها خطرةٌ خطرة البرق بدَا ثم اضمحلّ
أيّ زورٍ لك لو قصداً سَرَى وملمٌ بك لو حقاً فَعَل[1]

فهو كما تراه يذكر البروق اللامعة حسبما ذكره الحكيم، وكلاهما يتبع ألفاظ أمير المؤمنين، لأنّه حكيم الحكماء وعارف العارفين، ومعلّم الصوفيّة، ولولا أخلاقه، وكلامه وتعليمُه للناس هذا الفن تارةً بقوله، وتارة بفعله، لما اهتدى

(١) الزور: الزائر.

أحد من هذه الطائفة، ولا علم كيف يُورد، ولا كيف يصدِر.

ثم قال﵀: «وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة»، أي لم يزل ينتقل من مقام من مقامات القوم إلى مقام فوقه، حتى وصل، وتلك المقامات معروفة عند أهلها، ومَن له أنس بها، وسنذكرها فيما بعد.

ثم قال: «وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه»، أي كانت الراحة الكلّية والسعادة الأبديّة مستثمره من ذلك التعب الذي تحمّله لما استعمل قلبه، وراض جوارحه ونفسه، حتى وصل، كما قيل[1]:

عِند الصَّباحِ يَحمدُ القومُ السُّرى
وَتَنجَلي عَنّا غَيَاباتُ الكرى

وقال آخر:

ما ابيضّ وجهُ المرء في طلب العُلا
حتى يسوّد وجههُ في البيدِ

(١) عند الصباح يحمد القوم السُّرى: مثل يضرب للرجل يحتمل المشقة رجاء الراحة. والسُّرى: سير الليل.

وقال:

فاطلــب هُــدُوءاً بالتقلقــل واســتثر
بالعِيسِ من تحت السّهاد هجودَا[1]
ما إن ترى الأحسابَ بيضاً وُضّحاً
إلا بحيــث تــرى المنايــا ســودا

(١) أي اطلب بالحركة في الأسفار سكوناً ودعة فيما بعد، وبالأرق نومــاً. وقولــه: "بالعيس" أي بركوب العيس، ومن تحت السهاد: أي من تحت الصبر علي السهاد راجع ديوان أبي تمام ١: ٤١٦.

٢١٧- ومن كلام له عليه السلام[1] قاله عند تلاوته: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالغُدُوِّ والآصالِ رِجالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللّهِ﴾[2]

إنَّ اللّهَ سُبْحَانَهُ وتَعَالى جَعَلَ الذِّكْرَ جَلاءً لِلْقُلوبِ تَسْمَعُ بِهِ بَعْدَ الوَقْرَةِ، وتُبْصِرُ بِهِ بَعْدَ العَشْوَةِ، وتَنْقَادُ بِهِ بَعْدَ المُعَانَدَةِ، ومَا بَرِحَ لِلّهِ - عَزَّتْ آلاؤُهُ، فِي البُرْهَةِ بَعْدَ البُرْهَةِ، وفِي أزْمَانِ الفَتَرَاتِ - عِبَادٌ نَاجَاهُمْ فِي فِكْرِهِمْ، وكَلَّمَهُمْ فِي ذَاتِ عُقُولِهِمْ، فَاسْتَصْبَحُوا بِنُورِ يَقَظَةٍ فِي الأسْمَاعِ والأبْصَارِ والأفْئِدَةِ، يُذَكِّرُونَ بِأيَّامِ اللّهِ، ويُخَوِّفُونَ مَقَامَهُ، بِمَنْزِلَةِ الأدِلَّةِ فِي الفَلَوَاتِ. مَنْ أخَذَ القَصْدَ حَمِدُوا إلَيْهِ طَرِيقَهُ، وبَشَّرُوهُ بِالنَّجَاةِ، ومَنْ أخَذَ يَمِيناً وشِمَالاً ذَمُّوا إلَيْهِ الطَّرِيقَ، وحَذَّرُوهُ مِنَ الهَلَكَةِ، وكَانُوا كَذَلِكَ مَصَابِيحَ تِلْكَ الظُّلُمَاتِ، وأدِلَّةَ تِلْكَ الشُّبُهَاتِ.

وَإنَّ لِلذِّكْرِ لأهْلاً أخَذُوهُ مِنَ الدُّنْيَا بَدَلاً، فَلَمْ تَشْغَلْهُمْ تِجَارَةٌ ولا بَيْعٌ عَنْهُ، يَقْطَعُونَ بِهِ أيَّامَ الحَيَاةِ، ويَهْتِفُونَ بِالزَّوَاجِرِ عَنْ مَحَارِمِ اللّهِ، فِي أسْمَاعِ الغَافِلِينَ، ويَأمُرُونَ بِالقِسْطِ ويَأتَمِرُونَ بِهِ، ويَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ ويَتَنَاهَوْنَ عَنْهُ، فَكَأنَّهُمْ قَطَعُوا الدُّنْيَا إلَى الآخِرَةِ وهُمْ فِيهَا، فَشَاهَدُوا مَا وَرَاءَ ذَلِكَ، فَكَأنَّمَا اطَّلَعُوا غُيُوبَ أهْلِ البَرْزَخِ فِي طُولِ

(١) روى صدر هذا الكلام الآمدي في غرره في حرف إن.
(٢) سورة النور، الآيتان ٣٦، ٣٧.

الإقَامَةِ فِيهِ، وحقَّقَتِ القِيَامَةُ عَلَيْهِمْ عِدَاتِهَا، فَكَشَفُوا غِطَاءَ ذَلِكَ لأَهْلِ الدُّنْيَا، حَتَّى كَأَنَّهُمْ يَرَوْنَ مَا لا يَرَى النَّاسُ، ويَسْمَعُونَ مَا لا يَسْمَعُونَ.

فَلَوْ مَثَّلْتَهُمْ لِعَقْلِكَ فِي مَقَاوِمِهِمُ المَحْمُودَةِ، ومَجَالِسِهِمُ المَشْهُودَةِ، وقَدْ نَشَرُوا دَوَاوِينَ أَعْمَالِهِمْ، وفَرَغُوا لِمُحَاسَبَةِ أَنْفُسِهِمْ عَلَى كُلِّ صَغِيرَةٍ وكَبِيرَةٍ؛ أُمِرُوا بِهَا فَقَصَّرُوا عَنْهَا، أَوْ نُهُوا عَنْهَا فَفَرَّطُوا فِيهَا، وحَمَّلُوا ثِقَلَ أَوْزَارِهِمْ ظُهُورَهُمْ، فَضَعُفُوا عَنِ الاسْتِقْلالِ بِهَا؛ فَنَشَجُوا نَشِيجاً، وتَجَاوَبُوا نَحِيباً، يَعِجُّونَ إِلَى رَبِّهِمْ مِنْ مَقَامِ نَدَمٍ واعْتِرَافٍ ـ لرَأَيْتَ أَعْلامَ هُدًى، ومَصَابِيحَ دُجًى، قَدْ حَفَّتْ بِهِمُ المَلائِكَةُ؛ وتَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ، وفُتِحَتْ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وأُعِدَّتْ لَهُمْ مَقَاعِدُ الكَرَامَاتِ، فِي مَقْعَدٍ اطَّلَعَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فِيهِ، فَرَضِيَ سَعْيَهُمْ، وحَمِدَ مَقَامَهُمْ، يَتَنَسَّمُونَ بِدُعَائِهِ رَوْحَ التَّجَاوُزِ، رَهَائِنُ فَاقَةٍ إِلَى فَضْلِهِ، وأُسَارَى ذِلَّةٍ لِعَظَمَتِهِ، جَرَحَ طُولُ الأَسَى قُلُوبَهُمْ، وطُولُ البُكَاءِ عُيُونَهُمْ.

لِكُلِّ بَابٍ رَغْبَةٍ إِلَى اللَّهِ مِنْهُمْ يَدٌ قَارِعَةٌ، يَسْأَلُونَ مَنْ لا تَضِيقُ لَدَيْهِ المَنَادِحُ، ولا يَخِيبُ عَلَيْهِ الرَّاغِبُونَ، فَحَاسِبْ نَفْسَكَ لِنَفْسِكَ؛ فَإِنَّ غَيْرَهَا مِنَ الأَنْفُسِ لَهَا حَسِيبٌ غَيْرُكَ.

الشرح: جلوت السيف والقلب جِلاء، بالكسر، وجلوت اليهودَ عن المدينة جَلاء بالفتح.

والوَقرة: الثقل في الأذن، والعَشوة، بالفتح: فَعله، من العشا

في العين. وآلاؤه: نعمه.

قوله: «عزت آلاؤه» بمعنى: «كرمت وعظمت»، تقول منه: عَزَزتُ على فلان بالفتح، أي كرُمت عليه، وعظُمت عنده، وفلان عزيز علينا، أي كريم معظم.

والبُرهة من الدهر: المدّة الطويلة، ويجوز فتح الباء.

وأزمان الفترات: ما يكون منها بين النّوبتين.

وناجاهم في فكرهم: ألهمهم، بخلاف مناجاة الرسل ببعث الملائكة إليهم، وكذلك «وكلمهم في ذات عقولهم»، «فاستصبحوا بنور يقظة»: صار ذلك النور مصباحاً لهم يستضيئون به.

قوله: «مَن أخذ القصد حَمِدوا إليهم طريقه»، إلى هاهنا: هي التي في قولهم: أحمد الله إليك؛ أي مُنهياً ذلك إليك، وكذا «إلى» في قوله: «ذموا إليه الطريق».

قوله: «ومَن أخذ يميناً وشمالاً» أي ضلّ عن الجادّة.

ويهتفون بالزواجر: يصوّتون بها، هتفت الحمامة تهتف هتفاً، وهتف زيد بالغنم هِتافاً، وقوسٌ هتّافة وهتفى، أي ذات صوت.

والقسْط: العدل. ويأتمرون به: يمتثلون الأمر.

وقوله: «فكأنما قطعوا الدنيا إلى الآخرة» إلى قوله: «ويسمعون ما لا يسمعون»، هو شرح قوله عن نفسه ﷺ: «لو كُشف الغطاء ما ازددت يقيناً».

والأوزار: الذنوب. والنشيج: صوت البكاء. والمقعد: موضع القعود.

ويد قارعة: تطرق باب الرحمة، وهذا الكلام مجاز. والمنادِح: المواضع الواسعة. والحسيب: المحاسب.

واعلم أنّ هذا الكلام في الظاهر صفة حال القصّاص والمتصدّين لإنكار القبائح، وباطن الكلام شرح حال العارفين الذين هم صفوة الله تعالى من خلقه وهو ﷺ دائما يكنّي عنهم ويرمز إليهم على أنّه في هذا الموضع قد صرّح بهم في قوله: «حتّى كأنّهم يرون ما لا يرى الناس، ويسمعون ما لا يسمعون». وقد ذكر من مقامات العارفين في هذا الفصل: الذّكر، ومحاسبة النفس، والبكاء، والنحيب، والنّدم، والتوبة، والدعاء، والفاقة، والذلّة، والحزن، وهو الأسى الذي ذكر أنّه جرح قلوبهم بطوله.

بيان أحوال العارفين

أوّل مقام من مقامات العارفين وأوّل منزل من منازل السالكين التوبة، قال الله تعالى:﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور:٣١].

قال النبيّ ﷺ: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

وقال علي ﷺ: «ما من شيء أحبُ إلى الله من شابٍّ تائب».

والتوبة في عرف أرباب هذه الطريقة النّدم على ما عمل من المخالفة وترك الزلّة في الحال والعزم على ألا يعودَ إلى ارتكاب معصية.

قالوا: وللتوبة شروط وترتيبات: فأوّل ذلك انتباه القلب من رَقدة الغفلة، ورؤية العبد ما هو عليه من سوء الحالة، وإنما يصل إلى هذه الجملة بالتوفيق للإصغاء إلى ما يخطر بباله من زَواجر الحق سبحانه، يسمع قلبه، فإنّ في الخبر النبويّ عنه ﷺ: «واعظ كل حالٍ الله في قلب كل امرئ مسلم».

وسئل البوشنجيّ عن التوبة، فقال: إذا ذكرت الذنب ثم لا تجد حلاوته عند ذكره، فذاك حقيقة التوبة.

وكان من سنّته ﷺ دوام الاستغفار، وقال: «إنه ليُغَانُ على قلبي فاستغفر الله في اليوم سبعين مرّة».

وقال يحيى بن معاذ: زلّة واحدة بعد التوبة أقبح من سبعين قبلها. ويحكي أن عليّ بن عيسى الوزير ركب في موكب عظيم، فجعل الغرباء يقولون: مَن هذا! مَن هذا! فقالت امرأة قائمة على السطح: إلى متى تقولون: من هذا، من هذا! هذا عبد سقط من عينِ الله، فابتلاه بما ترون. فسمع علي بن عيسى كلامها، فرجع إلى منزله ولم يزل يتوصل في الاستعفاء من الوزارة حتى أُعفِي، وذهب إلى مكّة فجاور بها.

ومنها المجاهدة، ومنها العزلة والخلوة والتقوى، والورع وهو اجتناب الشُبهات.

وكان يقال: الورع في المنطق أشدّ منه في الذّهب والفضة، والزّهد في الرئاسة أشدّ منه في الذهب والفِضّة، لأنّك تبذلهما في طلب الرئاسة.

وقال بشر بن الحارث: أشدّ الأعمال ثلاثة: الجود في القلّة، والورع في الخلوة، وكلمة الحقّ عند من يُخاف ويرجَى.

وقال الحسن: مثقالُ ذَرّة من الوَرع خيرٌ من ألف مثقال من الصّوم والصلاة.

ودخل الحسن مكّة، فرأى غلاماً من ولَدِ علي بن أبي طالب، قد أسندَ ظهره إلى الكعبة وهو يعظ النّاس، فقال له الحسن: ما مِلاك الدين؟ قال: الورع، قال: فما آفته؟ قال: الطمع، فجعل الحسن يتعجّب منه.

ومنها الزهد، وقد قيل: الزهد تحت كلمتين من القرآن العزيز: ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى ما فاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ﴾[الحديد:٢٣].

ومنها الصمت، قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذيَن جاره، ومن كان يؤمنُ بالله واليوم الآخر فليكرمْ ضيفه، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو فليصمت».

وقال أصحاب هذا العلم: الصمت من آداب الحضرة، قال الله تعالى: ﴿وَإِذا قُرِئَ القُرآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وأَنْصِتُوا﴾ [الأعراف:٢٠٤]، وقال مخبراً عن الجن: ﴿فَلَمّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا﴾[الأحقاف:٢٩].

وقالوا كم بين عبد سكت تصوّناً عن الكذب والغيبة، وعبد سكت لاستيلاء سلطان الهيبة. وأنشدوا:

أرتّبُ ما أقولُ إذا افترقنَا ... وأحكِم دائماً حُجَجَ المقَالِ

فأنساها إذا نحن التقينا وأنطقُ حين أنطق بالمحَالِ

وأنشدوا:

فيا ليلُ كم من حاجةٍ لي مهمّةٍ
إذا جئتكم لم أدرِ بالليل ماهيا!

ومنها: الخوف، قال الله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وطَمَعاً﴾[السجدة:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾[البقرة:٤٠]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠].

ومنها: الرجاء، قال سبحانه: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لاتٍ﴾ [العنكبوت:٥].

ومن كلام يحيى بن معاذ ـ ويروى عن عليّ بن الحسين ﷺ: يكاد رجائي لك مع الذنوب، يغلب رجائي لك مع الأعمال؛ لأني أجدُني أعتمد في الأعمال على الإخلاص، وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك! وكيف لا تغفرها وأنت بالجود موصوف.

ومنها: الحزن، وهو من أوصاف أهل السّلوك.

في الخبر النبويّ ﷺ: «إن الله يحب كلّ قلبٍ حزين».

وروي أن رسول الله ﷺ كان متواصلَ الأحزان، دائم الفكر.

وقيل: إن القلب إذا لم يكن فيه حزن خَرِب؛ كما أن الدار إذا لم يكن فيها ساكن خرِبت. وسمعت رابعة رجلاً يقول: واحُزناه! فقالت: قُل واقلّة حُزناه! لو كنتَ محزوناً ما تهيّأ لك أن تتنفّس!.

ومنها: الجوعُ وترك الشهوات.

ومنها: الخشوع والتواضع، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون:٢].

وفي الخبر النبوي عنه ﷺ: «لا يدخلُ الجنّة من في قلبه مثقال ذرّة من كبر، ولا يدخل النار مَن في قلبه مثقال ذَرّة من إيمان، فقال رجل: يا رسولَ الله، إن المرء ليُحبّ أن يكون ثوبُه حسناً، فقال: «إن الله جميل يحبّ الجمال؛ إنما المتكبّر من بطر الحق، وغمص الناس».

ورأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر، منكسر الشاهد، قد زوي منكبيه، فقال: يا فلان، الخشوع هاهنا ـ وأشار إلى صدره، لا هاهنا ـ وأشار إلى منكبيه.

ورُويَ أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يعبث بلحيته في صلاته، فقال: «لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه».

وقيل: إن عمر بن عبد العزيز لم يكن يسجد إلا على

التراب.

كان رجاء بن حَيوة ليلةً عند عمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فصعف المصباح، فقام رجل ليصلحه، فقال: اجلس، فليس من الكرم أن يستخدم المرء ضيفَه، فقال : أنبِه الغلام، قال: إنها أوّل نومةٍ نامها، ثم قام بنفسه فأصلَح السراج فقال رجاء: أتقوم إلى السراج وأنت أمير المؤمنين! قال: قمت وأنا عمر بن عبد العزيز، ورجعت وأنا عمر بن عبد العزيز.

وفي حديث أبي سعيد الخُدريّ أن رسول الله ﷺ كان يعلِفُ البعير ويقمُّ البيتَ، ويخصِف النّعل ويرقع الثّوب، ويحلُب الشاة، ويأكل مع الخادم، ويطحن معها إذا أعيت. وكان لا يمنعه الحياءُ أن يحمل بضاعته من السُّوق إلى منزل أهله، وكان يصافح الغنيّ والفقير، ويسلّم مبتدئاً، ولا يحقر ما دُعي إليه ولو إلى حَشَف التّمر. وكان هين المؤنة، لين الخُلق، كريم السجيّة، جميل المعاشرة، طلق الوجه، بساماً من غير ضحك، محزوناً من غير عُبوس، متواضعاً من غير ذلّة، جواداً من غير سَرَف، رقيق القلب، رحيماً لكل مسلم، ما تجشّأ قطّ من شبع، ولا مدّ يده إلى طَبَع.

مرّ الحسنُ بن علي ﷺ بصبيان يلعبون، وبين أيديهم كِسَر خبز يأكلونها، فدعوه فنزل وأكل معهم، ثم حملهم إلى منزله،

فأطعمهم وكساهم، وقال: الفضل لهم، لأنهم لم يجدوا غيَر ما أطعموني، ونحن نجد أكثر مما أطعمناهم.

ومنها: مخالفة النّفس، وذكر عيوبها، وقد تقدم ذكر ذلك.

ومنها: القناعة، قال الله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثى وهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً﴾[النحل:٥٧]، قال كثير من المفسرين: هي القناعة.

وفي الحديث النبوي ـ ويقال إنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «القناعة كنز لا ينفد».

وفي الحديث النبويّ أيضاً: «كن ورِعاً تكن أعبدَ النّاس، وكن قنوعاً تكن أشكَر الناس، وأحب للناس ما تحبّ لنفسك تكن مؤمناً، وأحسن مجاورة مَن جاورك تكن مسلماً، وأقلّ الضحك، فإن كثرة الضحك تميتُ القلب».

وكان يقال: الفقراء أمواتٌ إلا من أحياه الله تعالى بعزّ القناعة.

مرّ أبو حازم الأعرج بقصّاب، فقال له: خذ يا أبا حازم، فقال ليس معي درهم، قال: أنا أنظِرُك، قال: نفسي أحسن نظِرةً

لي منك.

وقيل: وضع الله تعالى خمسة أشياء في خمسة مواضع: العزّ في الطاعة، والذلّ في المعصية، والهيبة في قيام الليل، والحكمة في البطن الخالي، والغنى في القناعة.

ورأى رجل حكيماً يأكل ما تساقط من البقل على رأس الماء، فقال له: لو خدمت السلطان لم تحتَج إلى أكل هذا! فقال: وأنت لو قنعتَ بهذا لم تحتج إلى خدمة السلطان.

وقيل: العُقاب عزيزٌ في مطاره، لا تسمو إليه مطامع الصيادين، فإذا طمع في جِيفةً علِقت على حبالة، نزل من مطاره فنشب في الأحبولة.

ومنها: التوكّل، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[الطلاق:٣].

وقال سهل بن عبد الله: أوّلُ مقامٍ في التوكل أن يكونَ العبد بين يدي الله تعالى، كالميت بين يدي الغاسل، يقلّبه كيف يشاء، لا يكون له حركة، ولا تدبير.

وقال رجل لحاتم الأصمّ: من أين تأكل؟ فقال: ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّماواتِ والأَرْضِ ولكِنّ الْمُنافِقِينَ لا يَفْقَهُونَ﴾ [المنافقون:٧].

وفي الخبر النبوي أنه ﷺ قال للأعرابيّ الذي ترك ناقته مهملة فندّت، فلما قيل له، قال: توكّلت فتركتُها، فقال ﷺ: «اعقِل وتوكّل».

جاء رجلٌ إلى الشّبلي يشكو إليه كثرة العيال، فقال: ارجع إلى بيتك، فمن وجدت منهم ليس رزقه على الله فأخرجه من البيت.

وقال سهل بن عبد الله: مَن طَعن في التوكّل فقط طعَن في الإيمان، ومن طعن في الحركة، فقد طعن في السنة.

وكان يقال: المتوكّل كالطفل لا يعرف شيئاً يأوي إليه إلا ثدي أمّه، كذلك المتوكل لا يهتدي إلا إلى ربه.

ورأى أبو سليمان الدارانيّ رجلاً بمكّة لا يتناول شيئاً إلا شربةً من ماء زمزم، فمضت عليه أيام، فقال له يوماً: أ رأيت لو غارت - أي زمزم - أي شيء كنت تشرب! فقام وقبّل رأسه، وقال: جزاك الله خيراً حيث أرشدتني؛ فإني كنت أعبد زمزم منذ أيام، ثم تركه ومضى.

ومنها: الشّكر.

ومنها: اليقين، وهو مقام جليل، قال الله تعالى: ﴿وَ

بِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:٤]،

قال علي بن أبي طالب﵁: لو كشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً.

وذكر للنبيّﷺ ما يقال عن عيسى ابن مريم﵇ أنّه مشى على الماء، فقال: لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء.

ومنها: الصبر، قال الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وما صَبْرُكَ إِلا بِاللَّهِ﴾[النحل:١٢٧]، وقال عليّ﵁: الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد. وقال﵁: الصبر مطيّة لا تكبو.

ومنها: المراقبة، جاء في الخبر عن النبيّﷺ أنّ سائلاً سأله عن الإحسان، فقال: «أن تعبد الله كأنّك تراهُ، فإن لم تكن تراهُ، فإنه يراك».

وهذه إشارة إلى حال المراقبة، لأن المراقبة علم العبد باطلاع الربّ عليه، فاستدامة العبد لهذا العلم مراقبة للحقّ، وهو أصل كلّ خير، ولا يكاد يصل إلى هذه الرّتبة إلا بعد فراغه عن المحاسبة، فإذا حاسب نفسَه على ما سلف، وأصلح حاله في الوقت، ولازم طريق الحقّ، وأحسن بينه وبين الله تعالى بمراعاة القلب، وحفظ مع الله سبحانه الأنفاس، راقبه تعالى في عموم

أحواله، فيعلم أنه تعالى رقيب عليه، يعلم أحواله، ويرى أفعاله، ويسمع أقواله. ومَن تغافل عن هذه الجملة، فهو بمعزل عن بداية الوصلة، فكيف عن حقائق القربة!

ويحكى أنّ ملكاً كان يتحظّى جارية له، وكان لوزيره ميل باطنٌ إليها؛ فكان يسعى في مصالحها، ويرجّح جانبها على جانب غيرها من حظايا الملك ونسائه، فاتّفق أن عرض عليها الملك حَجَرين من الياقوت الأحمر: أحدهما أنفس من الآخر، بمحضر من وزيره، فتحيّرت أيهما تأخذ! فأومأ الوزير بعينه إلى الحجر الأنفس، وحانت من الملك التفاتة، فشاهد عين الوزير وهي مائلة إلى ذلك الجانب، فبقِيَ الوزير بعدها أربعين سنة لا يراه الملك قط إلا كاسراً عينه نحو الجانب الذي كان طرفُه مائلاً إليه ذلك اليوم، أي كأن ذلك خِلقة وهذا عزم قويٌ في المراقبة، ومثله فليكن حالُ من يريد الوصول.

ومنها: الرضا، وهو أن يرضى العبد بالشدائد والمصائب التي يقضيها الله تعالى عليه.

قال رويم: الرّضا أن لو أدخلك جهنّم لما سخطت عليه.

وقال تعالى: فيمن سخط قسمته: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ

يَسْخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨].

ثم نبّه على ما حرمُوه من فضيلة الرضا، فقال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا ما آتاهُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ وقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ورَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ راغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩].

قدم سعد بن أبي وقاص مكّة بعد ما كُفَّ بصره، فانثال الناس عليه يسألونه الدعاء لهم، فقال له عبد الله بن السائب: يا عمّ إنك تدعُو للناس فيُستجاب لك، هلا دعوت أن يردّ عليك بصرك! فقال: يا ابن أخي، قضاء الله تعالى أحبُ إليّ من بصري.

وقيل للحسن: من أين أُتيَ الخلق؟ قال: مِن قلّة الرضا عن الله، فقيل: ومن أين دخلت عليهم قلّة الرضا عن الله؟ قال: من قلّة المعرفة بالله.

ومنها: العبودية، وهي أمر وراء العبادة؛ معناها التعبّد والتذلّل.

وسئل محمد بن خفيف: متى تصح العبوديّة؟ فقال: إذا طرح كَلّه على مولاه، وصبر معه على بلواه.

رأى أبو يزيد البِسطاميّ رجلاً، فقال له: ما حرفتُك؟ قال خَربنده، قال: أمات الله حمارك؛ لتكون عبداً لله، لا عبداً للحمار.

وكان ببغداد في رِباط شيخ الشّيوخ، صوفيّ كبير اللّحية جداً، وكان مغرىً، ومعنى بها أكثر زمانه، يدهنها ويسرّحها، ويجعلها ليلاً عند نومه في كيس، فقام بعض المريدين إليه في الليل، وهو نائم، فقصّها من الأذن إلى الأذن، فأصبحت كالصرّيم. وأصبح الصوفيّ شاكياً إلى شيخ الرّباط، فجمع الصوفيّة وسألهم، فقال المريد: أنا قصصتُها، قال: وكيف فعلت، ويلك ذلك! قال: أيها الشيخ، إنها كانت صنمَه، وكان يعبدها من دون الله، فأنكرت ذلك بقلبي، وأردتُ أن أجعله عبداً لله لا عبداً لِلّحية.

ومنها: الإرادة، قال تعالى: ﴿وَلا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾[الإسراء:١].

قالوا: الإرادة هي بَدء طريق السّالكين، وهي اسم لأوّل منازل القاصدين إلى الله، وإنما سمّيت هذه الصفة إرادة، لأن الإرادة مقدّمة كل أمر، فما لم يرد العبد شيئاً لم يفعله، فلما كان هذا الشأن أول الأمر لمن يسلك طريق الله سمّي إرادة، تشبيهاً له بالقصد إلى الأمور التي هو مقدّمتها.

وحكى بعضُهم، قال: كنتُ بالبادية وحدي فضاق صدري، فصحتُ: يا أنس كلّموني يا جنّ كلّموني! فهتف هاتفٌ: أي شيء ناديت؟ فقلت: الله، فقال الهاتف: كذبت، لو أردته لما ناديتَ الإنس، ولا الجنّ.

فالمريد هو الذي لا يشغله عن الله شيء، ولا يفترآناء الليل وأطراف النهار، فهو في الظاهر بنعت المجاهدات، وفي الباطن بوصف المكابدات، فارق الفراش، ولازم الانكماش، وتحمّل المصاعب، وركب المتاعب، وعالج الأخلاق، ومارس المشاقّ وعانق الأهوال، وفارق الأشكال، فهو كما قيل:

ثمّ قطعتُ الليلَ في مَهمَهٍ ... لا أسداً أخشى ولا ذِيبَا[1]

يغلبني شوقِي فأطوي السُّرى ... ولم يزل ذو الشّوق مغلوبا[2]

وقال أصحابُ الطريقة: بين المريد والمُراد فَرق، فالمريد من سلك الرياضة طلباً للوصول، والمراد مَن فاضت عليه العناية الإلهية ابتداء، فكان مخطوباً لا خاطباً، وبين الخاطب والمخطوب فرق عظيم.

قالوا: كان مُوسى عليه السلام مريداً، قال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي﴾[طه:٢٥]، وكان محمد ﷺ مُراداً، قال له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ

---

(١) المهمه: القفار، المفازة.

(٢) السُّرى: سير الليل.

لَكَ صَدْرَكَ﴾[الشرح:١]؛ وسئل الجنيد عن المريد والمراد، فقال: المريد سائر، والمراد طائر، ومتى يلحق السائرُ الطائر.

ومنها: الاستقامة، وحقيقتها الدّوام والاستمرار على الحال، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت:٣٠].

وفي الحديث المرفوع: «شَيَّبَتني هُود»، فقيل له في ذلك، فقال قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ [هود:١١٢].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[الجن:١٦]، فلم يقل «سقيناهم» بل ﴿أسقيناهم﴾، أي جعلنا لهم سُقيا دائمة، وذلك لأن من دام عَلَى الخدمة دامت عليه النعمة.

ومنها: الإخلاص، وهو إفراد الحقّ خاصّة في الطاعة بالقصد والتقرب إليه بذلك خاصة، من غير رياء ومن غير أن يمازجه شيء آخر من تصنّع لمخلوق، أو اكتساب محمَدَة بين الناس، أو محبّة مدح، أو معنى من المعاني، ولذلك قال أربابُ هذا الفن: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين.

وجاء في الأثر عن مكحول: ما أخلص عبدُ لله أربعينَ

صباحاً؛ إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه.

ومنها: الصدق، ويطلق على معنيين: تجنّب الكذب، وتجنّب الرياء.

ومنها: الحياء، وفي الحديث الصحيح: «إذا لم تستحي فاصنع ما شئت». وفي الحديث أيضاً: «الحياء من الإيمان». وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرى﴾[العلق:١٤]، قالوا: معناه ألم يستحي!

ومنها: الحرية، وهو ألا يكون الإنسان بقلبه رقّ شيء من المخلوقات؛ لا من أغراض الدنيا، ولا من أغراض الآخرة.

قال له ﷺ بعضُ أصحاب الصُفّة: قد عزفت نفسي يا رسول الله عن الدّنيا، فاستوى عندي ذهبُها وحَجَرُها. قال: صرت حرّاً.

ومنها: الذكر، قال الله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[الأحزاب:٤١].

وفي الخبر المرفوع: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا فيها»، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: «مجالس الذكر».

وفي الخبر المرفوع: «أنا جليسُ مَن ذكرني». وسمع الشَّبليّ وهو يُنشد:

ذكرتُــك لا أنــي نســيتُك لمحــةً
فكدت بلا وجدٍ أموت من الهوَى
فلمـا أرانـي الوجـد أنـك حاضـري
فخاطبــت موجــوداً بغــير تكلُّــمِ
وأيسـر مـا في الـذّكر ذكـرُ لسـاني
وهــامَ علــيّ القلــبُ بالخفقــانِ
شــهدتك موجــوداً بكــل مكــانِ
ولاحظــتُ معلومــاً بغــير عيــانِ

ومنها: الفراسة[1]، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[الحجر:٧٥]، أي للمتفرسين.

ومنها: حسن الخلق، وهو من صفات العارفين، فقد أثنى الله تعالى به على نبيه، فقال:﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤].

وقال النبيّ ﷺ: «إنكم لن تسعُوا الناس بأموالكم، فسعُوهم

---

(١) الفراسة: ادراك الباطن من نظر الظاهر.

بأخلاقكم».

شتم رجلٌ الأحنف بن قيس، وجعل يتبعه ويشتمُه، فلما قرب الحيّ وقف، وقال: يا فتى، إن كان قد بقي في قلبك شيء فقله، كيلا يسمَعك سفهاءُ الحيّ فيجيبوك.

قالت امرأة لمالك بن دينار: يا مرائي! فقال: لقد وجدتِ اسمي الذي أضلّه أهل البصرة.

قال بعضهم ـ وقد سئل عن غلام سوء له: لم يمسكه؟ قال: أ تعلّم عليه الحلم.

وكان يقال: ثلاثة لا يعرَفُون إلا عند ثلاثة: الحليمُ عند الغضب، والشجاع عند الحرب، والصديق عند الحاجة إليه.

خرج إبراهيم بن أدهم إلى بعض البراري، فاستقبله جنديّ فسأله: أين العمران؟ فأشار إلى المقبرة، فضرب رأسه فشجّه وأدماه، فلما جاوزه قيل له: إن ذلك إبراهيم بن أدهم زاهد خراسان! فرّد إليه يعتذر. فقال إبراهيم: إنّك لما ضربتني سألتُ الله لك الجنة. قال: لم سألت ذلك؟ قال: علمتُ أني أُوجر على ضربك، لي فلم أرد أن يكون نصيبي منك الخير، ونصيبك مني الشر.

كان أبو ذَرّ على حوضٍ يسقي إبله، فزاحمه إنسانٌ فكسر

الحوض، فجلس أبو ذر ثم اضطجع فقيل له في ذلك، فقال: أمرنا رسول الله ﷺ: «إذا غضب الرجل وهو قائم فليجلس؛ فإن ذهب عنه، وإلا فليضطجع».

دعا إنسان بعض مشاهير الصوفيّة إلى ضيافة، فلما حضر باب داره ردّه واعتذر إليه. ثم فعل به مثل ذلك وثانية وثالثة، والصوفيّ لا يغضب، ولا يضجر، فمدحه ذلك الإنسان وأثنى عليه بحسن الخلق، فقال: إنما تمدحني على خُلق تجد مثلَه في الكلب؛ إن دعوته حضر، وإن زجرته انزجر.

كان لبغض الخياطين جارٌ يدفع إليه ثياباً فيخيطها، ويدفع إليه أجرتها دراهم زُيوفاً[1] فيأخذها، فقام يوماً من حانوته، واستخلف ولَده فجاء الجار بالدّراهم الزائفة، فدفعها إلى الولد فلم يقبلها، فأبدلها بدراهم جيّدة، فلما جاء أبوه دفع إليه الدّراهم، فقال: ويحك! هل جرى بينك وبينه أمر؟ قال: نعم، إنه أحضرَ الدّراهم زُيوفاً، فرددتها فأحضر هذه، فقال: بئس ما صنعت! إنه منذ كذا وكذا سنة يعاملني بالزائف وأصبر عليه، وألقيها في بئر، كي لا يغرّ غيري بها!

دعا عليٌّ ﷺ غلاماً له مراراً؛ وهو لا يجيبه، فقام إليه فقال:

---

(١) دراهم زيوفا: أي فاسدة.

ألا تسمع يا غلام! قال: بلى، قال: فما حملك على ترك الجواب؟ قال: أمني لعقوبتك، قال: اذهب فأنت حرّ.

ومنها: الكِتمان، قال رسول الله ﷺ: «استعينوا على أمورِكم بالكتمان».

وقال الحسين بن منصور الحلاّج:

إني لأكتمُ من علمي جواهرَه
كي لا يرى العلم ذو جهل فيفتننا
وقد تقدّمني فيه أبو حسن
إلى الحسين، وأوصى قبلَه الحسنَا
ياربّ مكنونِ علمٍ لو أبوحُ به
لقيل لي أنتَ ممن يعبُدُ الوثنا!
ولاستحلّ رجالٌ صالحونَ دمي
يرون أقبحَ ما يأتونَهُ حسنا

ومنها: الجود والسّخاء والإيثار، قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩].

وقال النبيّ ﷺ: السّخيّ قريبٌ من الله، قريبٌ من الناس، والبخيلُ بعيدٌ من الله، بعيدٌ من الناس. وأن الجاهل السخي

أحبُّ إلى الله من العابد البخيل.

قال أسماء بن خارجة الفزاريّ: ما أُحبَّ أن أردَّ أحداً عن حاجة طلبها؛ إن كان كريماً صُنتُ عِرضَه عن الناس، وإن كان لئيماً صُنتُ عنه عرضي.

أضاف عبد الله بن عامر رجلاً فأحسن قِراه[1]، فلما أراد أن يرتحل لم يعنه غلمانه. فسئل عن ذلك، فقال: إنهم إنما يعينون مَن نزل علينا، لا من ارتحل عنا.

ومنها: الغيرة، قال رسول الله ﷺ: «لا أحدَ أغيرُ من الله، إنما حرّم الفواحش ما ظهر منها وما بطن لغيرته».

ومنها: التفويض[2]، قال الله تعالى: ﴿وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وهُوَ شَرٌّ لَكُمْ واللّهُ يَعْلَمُ وأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٢١٦].

وحقيقة التفويض هي التسليم لأحكام الحقّ سبحانه، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنا إِلاّ ما كَتَبَ اللّهُ لَنا هُوَ مَوْلانا وعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة:٥١].

---

(١) أحسن قِراه: أحسن اطعامه. والقِرى: طعام الضيف.
(٢) التفويض: التسليم لمشيئة الله تعالى.

وقد بالغ النبيّ ﷺ في التصريح به والنصّ عليه بقوله لعبد الله بن مسعود: «ليقلّ همُّك؛ ما قدّر أتاك وما لم يقدّر لم يأتِك؛ ولو جهد الخلق أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم يقدروا عليه، ولو جَهِدوا أن يضرُّوك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يقدروا على ذلك».

ومنها: **الولاية والمعرفة**، ومنها: الدّعاء والمناجاة، قال الله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر:٦٠]. وفي الحديث المرفوع: «الدعاء مخّ العبادة».

ومن أدب الدعاء حضورُ القلب، فقد روي عنه ﷺ: «أنّ الله لا يستجيب دعاء قلب لاه».

ومن شروط الإجابة طِيب الطُّعمة وحلّ المكسب؛ قال ﷺ لسعد بن أبي وقّاص: «أطِب كسبك تُستَجب دعوتك».

وينبغي أن يكون الدعاء بعد المعرفة، قيل لجعفر بن محمد الصادق ﷺ: ما بالُنا ندعو فلا يستجاب لنا! قال: لأنكم تدعون مَن لا تعرفونه.

كان صالح المريّ يقول كثيراً: ادعوا: فمن أدمَن قَرع الباب يوشك أن يفتح له. فقالت له رابعة العدوية: ما ذا تقول؟ أغُلق

هـذا البـاب حتـى يسـتفتح! فقـال صـالح: شـيخ جهـل، وامـرأة علمت.

ومنها: **التأسي**، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ كانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[الأحزاب:٢١]، أي في مصابه وما نيـل منـه في نفسه وفي أهله يوم أُحُد، فلا تجزعوا أن أصيب بعضكم.

وجاء في الحديث المرفوع: لا تنظروا إلى مَن فوقكُم، وانظروا إلى مَن دونكم، فإنّه أجدر ألا تزدروا نِعَـم الله عليكم، وقالـت الخنساء ترثي أخاها:

ولولا كثـرةُ البـاكين حَـولي ... على إخوانِهم لقتلتُ نفسـي
وما يبكُون مثلَ أخِي ولكِـن ... أُعزِّي النَّفس عنـهُ بالتأسـي

وحقيقة التأسيّ تهوين المصائب والنوائب على النفس بالنظر إلى ما أصاب أمثالك، ومن هو أرفعُ محلاً منك.

ومنها: **الفقر**، وهو شعار الصّالحين، قـال رسـول الله ﷺ: «اللهم أحيني مسكيناً، وأمتني مسكيناً، واحشرني مع المساكين».

قال لعليّ ﷺ: «إنّ الله قد زيّنك بزينة لم يزيّن العبـاد بأحسـن منها، وهـب لـك حـب المسـاكين، فجعلـك ترضـى بهـم أتباعـاً، ويرضون بك إماماً».

وجاء في الخبر المرفوع: «الفقراء الصُّبر[1] جُلساء الله يوم القيامة».

سئل ابن الجلاء عن الفَقر، فسكت ثم ذهب قليلاً، وعاد فقال: كانت عندي أربعة دوانيق فضّة، فاستحييت من الله أن أتكلم في الفقر وهي عندي، فذهبت فأخرجتها، ثم قعد فتكلّم في الفقر.

ومنها: الأدب، قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾[النجم:١٧]: حفظ أدب الحضرة.

قيل انه ﷺ لم يمدّ نظره فوق المقام الذي أوصل إليه ليلة شاهد السّدرة، وهي أقصى ما يمكن أن ينتهي إليه البشريّون. وفي الحديث المرفوع: «أدّبني ربي فأحسنَ تأديبي».

ومن كلامه ﷺ: ترك الأدب يوجب الطّرد، فمن أساء الأدب على البساط، ردّ إلى الباب، ومن أساء الأدب على الباب، ردّ إلى ساحة الدّوابّ».

ومنها: المحبّة، وهي مقام جليل، قالوا: المحبّة أن تهبَ كُلّك لمن أحببتَ، فلا يبقى لك منك شيء. وقيل لبعض

---

(١) الصُّبر: الصابرون.

العرب: ما وجدت من حبّ فلانة؟ قال: أرى القَمَر على جدارِها أحسن منه على جُدران الناس.

وفي الحديث المرفوع: «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبّه اللهُ ورسولُه». وهذا يتجاوز حدّ الجلالة والشرف.

قيل: كتب يحيى بن معاذ إلى أبي يزيد: سكرت من كثرة ما شربت من محبّته، فكتب إليه أبو يزيد: غيرك شرب بحور السّموات والأرض، وما روي بعد، ولسانه خارج، وهو يقول: هل من مزيد! وأنشد:

عَجبتُ لمن يقولُ ذكرتُ حبّي
وهَل أنسى فأذكر ما نسيتُ!
شربتُ الحبّ كأساً بعد كأسٍ
فما نَفِد الشّراب، ولا رَوِيتُ

ومنها: الشوق، جاء في الخبر المرفوع: أنّ الجنة لتشتاق إلى ثلاثة: عليّ، وسَلمان، وعَمّار.

الشوق مرتبة من مراتب القوم، ومقام من مقاماتهم. سئل ابن عَطاء: الشّوق أعلى أم المحبة؟ فقال: المحبّة، لأن الشوق منها يتولّد.

وقالوا في قوله تعالى: ﴿مَنْ كانَ يَرْجُوا لِقاءَ اللّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللّهِ لآتٍ﴾[العنكبوت:٥]، إنه تطيب لقلوب المشتاقين.

وقيل: إن شعيباً بكى حتى عميَ، فردّ الله إليه بصره، ثم بكى حتى عمِيَ فردّ عليه بصره، ثم كذلك ثلاثاً، فقال الله تعالى: «إن كان هذا البكاء شوقاً إلى الجنّة فقد أبحتُها لك، وإن كان خوفاً من النار فقد أجَرتُك منها»، فقال: وحقّك لا هذا ولا هذا، ولكن شوقاً إليك، فقال له: «لأجل ذلك أخدمتك نبيّي وكليمي عشر سنين».

ومنها: الزهد، ورفض الدنيا، قال سبحانه: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلى ما مَتَّعْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الحَياةِ الدُّنْيا﴾[طه:١٣١].

وجاء في الخبر أنّ يوسف عليه السلام كان يجوع في سِني الجدب[1]، فقيل له: أ تجوعُ وأنت على خزائن مصر! فقال: أخاف أن أشبَع فأنسى الجياع.

وكذلك قال علي عليه السلام، وقد قيل له: أهذا لباسُك، وهذا مأكولك، وأنت أمير المؤمنين! فقال: نعم، إن الله فرضَ على

(١) الجدب: القحل والمحل.

أئمة العدل أن يقدّروا لأنفسهم كضَعَفة النّاس، كيلا يتبيّغ[1] بالفقير فقره.

واعلم أنّ بعض هذه المراتب والمقامات التي ذكرناها للقوم قد يكون متداخلاً في الظاهر، وله في الباطن عندهم فرق يعرفه مَن يأنس بكتبهم، وقد أتينا في تقسيم مراتبهم وتفصيل مقاماتهم في هذا الفصل بما فيه كفاية[2].

(١) يتبيّغ به فقره: يغلبه ويحمله على الشرّ.
(٢) نهج البلاغة، ج١١، ص١٦٥.

الفصل العاشر

خطبة البيان

خطبة البيان

وفيما يلي نورد الخطبة النورانية للإمام عليّ أمير المؤمنين عليه السلام نظراً لأهميتها ومكانة شأنها:

قال الإمام علي عليه السلام: «روي عن محمد بن صدقة أنه قال: سأل أبو ذر الغفاري سلمان الفارسي(رض): يا أبا عبد الله ما معرفة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بالنّورانية: قال: يا جُندُب! فامض بنا حتى نسأله عن ذلك، قال: فأتيناهُ فلم نجدْهُ.

قال: فانتظرناه حتى جاء. قال صلوات الله عليه: ما جاء بكما؟ قالا: جئناك يا أمير المؤمنين نسألك عن معرِفتك بالنّورانية، قال صلوات الله عليه: مرحباً بكما من وليّين متعاهدين لدينه لستما بمقصرين. لَعمري أن ذلك لواجب على كلّ مؤمن ومؤمنة. ثم قال صلوات الله عليه: يا سلمانُ ويا جُندبُ، قالا: لبّيك يا أميرَ المؤمنين.

قال عليه السلام: إنّه لا يستكمل أحدٌ الإيمان حتى يعرفني كُنهَ معرفتي بالنّورانية، فإذا عرفني بهذه المعرفة فقد امتحن الله قلبه للإيمان، وشرح صدره للإسلام وصارَ عارفاً مستبصراً، ومن قصّر عن معرفة ذلك، فهو شاك ومُرتاب. يا سلمانُ ويا جُندبُ قالا: لبّيك يا أميرَ المؤمنين.

قال عليه السلام: معرفتي بالنّورانية معرفة الله عزّ وجلّ ومعرفة الله عزّ وجلّ معرفتي بالنورانية وهو الدين الخالص الذي قال الله تعالى:

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾.

يقول: ما أمروا إلاّ بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله وهو الدين الحنيفية المحمّدية السمحة. وقوله: ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ﴾ فمن أقام ولايتي فلقد أقام الصلاة وإقامة ولايتي صعبٌ مستصعبٌ لا يحتمله إلاّ ملك مقرّب أو نبيّ مرسل أو عبد مؤمن امتحن الله قلبَه للإيمان.

فالملك إذا لم يكن مُقرّباً لم يحتمله، والنبيّ إذا لم يكن مُرسَلاً لم يحتمله والمؤمنُ إذا لم يكن ممتَحناً لم يحتمله، قلتُ: يا أمير المؤمنين: من المؤمن وما نهايتُهُ وما حدُّه حتى أعرِفه؟ قال عليه السلام: يا أبا عبد الله، قُلتُ: لبّيك يا أخا رسول الله.

قال: المؤمن الممتحنُ هو الذي لا يردُ من أمرِنا إليه شيءٌ إلاّ شرح صدره لِقَبوله ولم يشك ولم يرتب.

اعلم يا أبا ذر! أنّ عبد الله عزّ وجلّ وخليفته على عِباده لا تجعلونا أرباباً وقولوا في فضلِنا ما شئتم، فإنّكم لا تبلغون كُنه ما فينا ولا نهايته، فإن الله عزّ وجلّ قد أعطانا أكبَرَ وأعظم ممّا

يصفُه واصِفُكُم أو يخطُرُ على قلبِ أحدِكم فإذا عرفتمونا هكذا فأنتم المؤمنون.

قال سلمان: قلتُ: يا أخا رسول الله ومن أقام الصلاة أقام ولايتنا؟ قال: نعم يا سلمان تصديقُ ذلك قوله تعالى في الكتاب العزيز: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ فالصبر رسول الله ﷺ، والصلاة إقامته ولايتي، فمنها قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ ولم يَقُل: وإنهما لكبيرة؛ لأن الولاية كبيرةٌ حمّلها إلاّ على الخاشعين، في الخاشعون هم الشيعة المستبصرون، وذلك لأنّ أهل الأقاويلِ من المرجئة والقدّرية والخوارج وغيرهم من الناصبية يقرّون لمحمد ﷺ ليس بينهم خلاف وهم مختلفون في ولايتي مُنكرون لذلك جاحدون بها إلاّ القليل.

وهم الذين وصفهم الله في كتابه العزيز فقال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الخَاشِعِينَ﴾ وقال الله تعالى في موضعٍ آخرَ في كتابه العزيز في نبوة محمد ﷺ وفي ولايتي، فقال عز وجلّ: ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ فالقصر محمّد والبئر المعطّلة ولايتي عطّلوها وجحدوها، ومن لم يقرّ بولايتي لم ينفعه الإقرار بنبوة محمد ﷺ ألاّ إنّهما مقرونان.

في ذلك أن النبي ﷺ مرسَلٌ وهو إمامُ الخلق، وعليّ مِن بعدِهِ

إمامَ الخلق وصيُ محمدﷺ، كما قال له النبيﷺ: «أنت منّي بمنزلة هارونَ من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي» وأوّلنا محمد وأوسطنا محمّد وآخرُنا محمّد، فمنِ استكمَلَ معرفتي فهو على الدين القيّم كما قال الله تعالى: ﴿وَذَلِكَ دِينُ القَيِّمَةِ﴾ وسأبيّن ذلك بعون الله وتوفيقه.

يا سلمان ويا جندب قالا: لبّيك يا أمير المؤمنين صلوات الله عليك.

قال: كنت أنا ومحمّد نوراً واحداً من نورِ الله عزّ وجلّ، فأمر الله تبارك وتعالى ذلك النور أن يُشقّ، فقال للنّصف: كُن محمّداً، وقال للنّصف كنْ علياً، فمنها قال رسول اللهﷺ: «علي مني وأنا من عليّ ولا يؤدي عني إلاّ علي» وقد وجّه أبا بكر ببراءة إلى مكّة فنزل جبرئيلﷺ، فقال: يا محمّد قال: لبّيك.

قال: إن الله يأمرُكَ أن تؤدّيها أنت أو رجلٌ عنك، فوجّهني في استرداد أبي بكر فرددتُه فوَجَدَ في نفسه، وقال: يا رسول الله أنَزِلَ فيّ القرآن؟ قال: لا ولكن لا يؤدّي إلاّ أنا أو عليّ.

يا سلمان ويا جندب قالا: لبّيك يا أخا رسول الله.

قالﷺ: من لا يصلح لِحمل صحيفة يؤدّيها عن رسول اللهﷺ كيف يصلح للإمامة؟ يا سلمان ويا جندبُ فأنّا ورسول

الله ﷺ كنّا نوراً واحداً صارَ رسول الله ﷺ محمّداً المصطفى، وصرتُ أنّا وصيّهُ المرتضى، وصارَ محمّد الناطق، وصِرتُ أنا الصامت، وأنه لا بدّ في كل عصرٍ من الأعصارِ أن يكون فيه ناطق وصامتُ، يا سلمان صارَ محمّد المنذر وصرتُ أنا الهادي، وذلك قوله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فرسول الله ﷺ المنذر وأنا الهادي.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ* عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ الْمُتَعَالِ* سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ القَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ* لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِن خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾.

قال: فضرب عليه السلام بيده على الأخرى، وقال: صارَ محمّد صاحب الجمع وصرت أنا صاحب النشر، وصار محمد صاحب الجنة، وصرتُ أنا صاحب النار، أقول لها: خذي هذا وذري هذا، وصار محمد ﷺ صاحب الرجفة وصرتُ أنا صاحب الهدة وأنا صاحب اللوح المحفوظ ألهمني الله عزّ وجلّ علم ما فيه.

نعم يا سلمان ويا جُندب وصارَ محمد ﴿يس* وَالْقُرْآنِ

الحَكيم﴾ وصار محمّد ﴿نُ﴿ والقلم﴾، وصار محمّد ﴿طه﴿ مَا أنزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآنَ لِتَشقَى﴾ وصار محمد صاحب الدلالات، وصرتُ أنا صاحبُ المعجِزات الآيات، وصار محمّد خاتم النبيّين وصرتُ أنا خاتم الوصيّين. وأنا ﴿الصراطُ المُستَقيم﴾ وأنا ﴿النَبأُ العَظِيم﴿ الذي هُمْ فيه مُختَلِفُونَ﴾ ولا أحدٌ اختلف إلاّ في ولايتي، وصارَ محمّد صاحب الدّعوة وصرتُ أنا صاحب السّيف وصار محمد نبيّاً مرسلاً وصرْتُ أنا صاحب أمر النبيﷺ قال الله عزّ وجلّ: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ وهو روح الله لا يعطيه ولا يُلقي هذه الروح إلاّ على ملك مقرّب أو نبيّ مرسلٍ أو وصيّ منتجب، فمنْ أعطاه الله هذا الروح فقد أبانَهُ من الناس وفوّض إليه القدرة وأحيى الموتى وعَلِم بما كان وما يكونُ وسارَ من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق في لحظة عينٍ. وعلم في الضمائر والقلوب وعلم ما في السماوات والأرض.

يا سلمانُ ويا جُندبُ وصار محمّد الذكر الذي قال الله عزّ وجلّ ﴿قَدْ أنزَلَ اللّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً﴿ رَسُولاً يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللّهِ﴾ إنـي أعطيت علم المنايا والبلايا وفصل الخطاب، واستودعت عِلم القرآن وما هو كائن إلى يوم القيامة، ومحمدﷺ أقام الحجّة حجّة الناس، وصرت أنا حجة الله عزّ وجل، جعل

الله لي ما لم يجعل لأحدٍ من الأوّلين والآخرين لا لنبيّ مُرسل ولا لملك مقرّب.

يا سلمانُ ويا جُندب قالا: لبّيك يا أمير المؤمنين.

قال عليه السلام: أنا الذي حملت نوحاً في السفيفة بأمرِ ربّي، وأنا الذي أخرجت يونس من بطن الحوت بإذن ربّي وأنا الذي جاوَزت بموسَى بن عمران البحر بأمر ربّي. وأنا الذي أخرجت إبراهيم من النار بإذن ربّي، وأنا الذي أجريتُ أنهارَها وفجّرت عيونها وغرست أشجارها بإذن ربّي.

وأنا عذاب يوم الظلّة، وأنا المنادي من مكانٍ قريبٍ قد سمِعه الثقلان: الجنّ والإنس وفهمه قومٌ إني لأسمع كل قوم الجبّارين والمنافقين بلُغاتِهم وأنا الخِضرُ عالمُ موسى وأنا معلّم سُليمان بن داود، وأنا ذو القرنين وأنا قُدرة الله عزّ وجلّ.

يا سلمان ويا جندب أنا محمّد وأنا من محمّد ومحمّد منّي.

قال الله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ * بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَ يَبْغِيَانِ﴾.

يا سلمان ويا جندبَ، قالا: لبّيك يا أمير المؤمنين.

قال: إن ميّتنا لم يمتْ وغائبنا لم يغب وإنّ قَتلانا لن يُقتلوا.

يا سلمان ويا جندت قالا: لبّيك صلوات الله عليك.

قال عليه السلام: أنا أمير كل مؤمن ومؤمنة ممّن مضي وممّن بقي. وأيّدت بروح العظمة، وإنما أنا عبدٌ من عبيد الله لا تسلونا أرباباً وقولوا في فضْلِنا ما شئتم فإنكم لن تبلغوا من فضلنا كُنه ما جعله الله لنا، ولا مِعشار العُشرَ.

لأنّا آياتُ الله ودلائله، وحُجج الله وخُلفاؤه وأمناؤه وأئمته، في وجه الله وعين الله ولسان الله، بنا يعذب الله عباده وبنا يُثيب، ومن بين خلقه طهرنا واختارنا واصطفانا. ولو قال قائلٌ: لمَ وكيف وفيمَ؟ لكفَرَ وأشرَك: لأنه لا يُسأل عمّا يفعل وهُم يسألون.

يا سلمانَ ويا جندبَ قالا: لبّيك يا أمير المؤمنين صلوات الله عليك.

قال عليه السلام: من آمن بما قلتُ وصدّق بما بيّنت وفسّرتُ وشرحتُ وأوضحتُ ونوّرتُ وبرهنتُ فهو مؤمنٌ ممتحنٌ امتحنَ الله قلبَه للإيمان وشرح صدره للإسلام وهو عارف مستبْصرٌ قد انتهى وبلغَ وكمُلَ. ومنْ شكّ وعندَ وجَحَد ووقَفَ وتحيّر وارتاب فهو مقصّر وناصبٌ.

يا سلمان ويا جندب، قالا: لبّيك يا أمير المؤمنين صلوات

الله عليك.

قال عليه السلام: أنا أحيي وأميت بإذن ربّي. وأنا أنبئكم بما تأكلون وما تدخِرون في بيوتِكم بإذن ربّي. وأنا عالمٌ بضَمائرِ قلوبكم. والأئمة من أولادي عليهم السلام يعلمون ويفعلون هذا إذا أخبروا أو أرادوا، لأنّا كلّنا واحداً، أوّلنا محمد وآخرنا محمّد وأوسطنا محمّد وكلّنا محمد فلا تفرّقوا بيننا. ونحن إذا شئنا شاء الله وإذا كرهنا كره الله الويل كلّ الويل لمن أنكر فضلنا وخصوصيتنا وما أعطانا الله ربّنا، لأنّ من أنكر شيئاً بما أعطانا الله فقد أنكر قدره الله عزّ وجلّ ومشيئته فينا.

يا سلمان ويا جندب، قالا: لبّيك يا أمير المؤمنين صلوات الله عليك.

قال عليه السلام: لقد أعطانا الله ربّنا ما هو أجلّ وأعظمُ وأعلى وأكبر من هذا كلّه.

قلنا: يا أمير المؤمنين ما الذي أعطاكم، ما هو أعظم وأجلّ من هذا كلّه.

قال: قد أعطانا ربّنا علمنا للإسم الأعظم الذي لو شئنا حُرِقت السماوات والأرض والجنة والنار ونُعرِجُ به إلى السماء ونهبط به الأرض ونُغرّب ونشرّق وننتهي به إلى العرش فنجلس

عليه بين يديّ الله عزّ وجلّ ويطيعنا كلّ شيء حتى السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب والبحار والجنّة والنار. أعطانا الله ذلك كلّه بالاسم الأعظم الذي علّمنا وخصّنا به. ومع هذا كلّه نأكل ونشرب ونمشي في الأسواق ونعمل هذه الأشياء بأمر ربّنا ونحن عباد الله المكرمون الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون.

وجعلنا معصومين مطهرين وفضّلنا على كثير من عباده المؤمنين، فنحن نقول: الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله وحقّت كلمة العذاب على الكافرين، أعني الجاحدين بكل ما أعطانا الله من الفضل والإحسان.

يا سلمانَ ويا جندبَ فهذا معرفتي بالنورانية فتمسّك بها راشداً؛ فإنه لا يبلغ أحدٌ من شيعتنا حدّ الاستبصار حتى يعرفني بالنورانية فإذا عرفني بها كان مستبصراً بالغاً كاملاً قد خاضَ بحراً من العلم. وارتقى درجة من الفضل، واطّلع على سرّ من سرّ الله، ومكنون خزائنه»[1].

---

(١) البحار، ١/٢٦، باب١٣، ح١.

وصية رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

لأبي ذر الغفاري

وصية الرسول ﷺ لأبي ذر

ثم لا يخفى على البصير النقيد إنّ روح الأعمال والأوراد والأذكار لا قوام لها ولا روحانية إلاّ ما ريّضتَ نفسك بهذه المواعظ المأثورة من سيد الأنبياء محمد المصطفى ﷺ مع أبو ذر رضي الله عنه.

قال النبي ﷺ اعلم: يا أبا ذر عند الله عزّ وجلّ مثلُ أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن رغب عنها غرق، ومثلُ باب حطة في بني إسرائيل من دخل كان آمناً.

قال تعالى: ﴿وَادْخُلُوا البَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾.

قال الله تعالى في حديث قدسي: {لولاك ما خلقت الأفلاك أوّل ما خلق الله نوري وكنت نبياً وآدم بين الماء والطين}.

وقال النبي ﷺ: «احفظ ما أوصيك به يا أبا ذر تكن سعيداً في الدنيا والآخرة، يا أبا ذر نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ واغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك.

يا أبا ذر إيّاك والتسويف فإنك بيومك ولست بما بعده فإن

يكن غداك فكن في الغد كما كنت في اليوم، وإن لم يكن غدٌ لك لم تندم على ما فرطت في اليوم.

يا أبا ذر مستقبل يوم لا يستكمله ومُنتظر غدٍ لا يبلغهُ.

يا أبا ذر لو نظرت إلى الأجل وسِيَرَهُ لأبغضت الأمل وغروره.

يا أبا ذر كُن في الدنيا كأنك غريب أو كعابر سبيل وعدّ نفسك من أهل القبور.

يا أبا ذر فلا تحدّث بالمساء، وإذا أمسيتَ فلا تحدّث نفسك بالصّباح وخُذ من صحّتك قبل سَقمكَ ومن حياتك قبل موت فإنّك لا تدري ما اسمك غداً.

يا أبا ذر إيّاك أن تدركك الصرعة عند الغرة، فلا تمكّن من الرجعة ولا يحمدك من خلّفت بما تركت ولا يعذرك من تقدّم عليه بما اشتغلت به.

يا أبا ذر لا رأيت كالنار هاربها ولا مثل الجنة قام طالبها.

يا أبا ذر كن على عُمرك أشحّ منك على درهمك ودينارك.

يا أبا ذر هل ينتظر أحدكم إلاّ غنىً مغطياً أو فقيراً أو مرطباً مفسداً أو هرماً مغنياً أو موتاً مجهزاً، أو الدجال. فإنّه شرّ غائب

ينتظر أو الساعة ﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ وقال النبيﷺ: «إنّ شرّ الناس منزلة عند الله يوم القيامة عالمٌ لا ينتفع بعلمه ومن طلب علماً ليعرف به وجوه الناس إليه لم يجد ريح الجنّة».

يا أبا ذر من ابتغى العلم ليخدع به الناس لم يجد ريح الجنّة.

يا أبا ذر إذا سُئلتَ عن علم لا تعلمه فقل لا أعلمه، تَنجَ من تَبِعَتِهِ ولا تُفتي الناس بما لا علم لك به، تَنْجَ من عذاب يوم القيامة.

يا أبا ذر يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار فيقول منّا أدخلكم النار وقد أدخلنا الجنة بفضل تأديبكم وتعليمكم فيقولون إنّا كنا نأمر بالخير ولا نفعلُه.

يا أبا ذر إنك في ممر الليل والنهار في آجال منقوصة وأعمال محفوظة، فالموت يأتي بغتةً «ومن يزرع يوشك خيراً أن يحصل خيراً»، «ومن يزرع يوشكُ شراً أن يحصل ندامة» ولكل زارع ما زرع.

يا أبا ذر «دع ما لستَ منه في شيء ولا تنطق فيما لا يعنيك، واخزن لسانك كما تخزن ورقك».

يا أبا ذر إن الله سبحانه ليُدخل قوماً الجنّة فيعطيهم حتى

يملّوا وفوقهم قومٌ في الدّرجات العلى، فإذا نظروا إليهم عرفوهم فيقولون رضا إخواننا كنّا معهم في الدنيا فلِمَ فضّلتهم علينا؟ فيقال: هيهات هيهات إنهم كانوا يجوعون حتى تشبعون، ويظمأون حتى تروون، ويقومون حتى تنامون، ويشخصون حين تحفظون.

يا أبا ذر المتقون سادة والفقهاء قادة، ومجالستهم زيادة، إنّ المؤمن ليرى نفسه.

يا أبا ذر إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ شراً أنساه ذنوبهُ.

يا أبا ذر لا تنظر صغر الخطيئة ولكن انظر من عصيت.

يا أبا ذر إن نفس المؤمن أشدّ ارتباكاً من الخطيئة من العصفور حين يقذف به في شَركِهِ.

يا أبا ذر من وافق قوله فعله فذاكَ الذي أصابه حظّه، ومن خالف قوله فإنما يوبّخ نفسه.

يا أبا ذر جعل الله جلّ ثناءهُ قرة عيني الصلاة وحببه إليه كما حبّب إلى الجائع الطعام وإلى الظمآن الماء، وإن الجائع إذا أكل شبع وإنّ الظمآن إذا شرب روى، وأنا لا أشبع من الصلاة.

يا أبا ذر إن الله عزّ وجلّ بعث عيسى بن مريم بالرهبانية وبُعثت بالحنيفية السّمحة، وحبّب إليّ النساء والطيب، وجعل

في الصلاة قرّة عيني.

يا أبا ذر رجل تطوع في كل يوم وليلة اثنتي عشرة ركعة سوى المكتوبة كان له حقاً واجباً في الجنّة.

يا أبا ذر إنك ما دُمتَ في الصلاة فإنك تقرع باب الملك الجبار، ومن يُكثر قرع باب الملم يُفتح له.

يا أبا ذر ما من مؤمن يقوم مصلياً إلاّ تناثر عليه البرّ ما بينه وبين العرش ووكِلَ به ملكٌ ينادي: يا ابن آدم لو تعلم مالكَ في الصلاة ومن تناجي ما انفتلت.

يا أبا ذر لدرجة في الجنة فوق الدرجة ما بين السماء والأرض وإنّ العبد ليرفع بصره فيلمح له نورٌ يكاد يخطف بصرهُ فيفزع لذلك فيقول ما هذا: فيقول: هذا نور أخيك فيقول: أخي فلانٌ كنّا نعمل جميعاً في الدنيا وقد فُضّلَ عليّ هكذا؟ فيقال له: إنّه كان أفضل منك عملاً، ثم يُجعل في قلبه الرّضا حتى يرضى.

يا أبا ذر الدنيا سجن المؤمن وجنّة الكافر، وما أصبح فيها مؤمن إلاّ حزيناً وكيف لا يحزن وقد أوعده النار وإنّه واردٌ جهنّم ولم يعده إنه صادرٌ عنها وليلقَيّنَ أمراضاً ومصيبات وأموراً تعطيه وليظلمنّ فلا ينتظر يبتغي ثواباً من الله فما يزالُ

حزيناً حتى يفارقها، فإذا فارقها أفضى على الراحة والكرامة.

يا أبا ذر ما أعبد الله على مثل طول الحزن.

يا أبا ذر من أوتي من العلم ما لا يبكيه مالا يعمل به لحقيقٌ أن يكون قد أوتي علماً ما لا يُنفعه لأنّ الله عزّ وجلّ نَعَتَ العلماء فقال: ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لاَ تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّداً * وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً * وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً﴾.

يا أبا ذر من استطاع أن يبكي فليبكِ، ومن لم يستطع فليُشعر قلبَهُ الحزن ويتبارك إنّ القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا يشعرون.

يا أبا ذر يقول الله تبارك وتعالى: لا أجمع على عبد خوفين، ولا أجمع له أمنين، فإذا آمنني أخفته يوم القيامة، وإذا أخافني في الدنيا آمنتهُ يوم القيامة.

يا أبا ذر لو أن رجلاً كان له عملاً كعمال سبعين نبياً لاحتقر وخشى أن ينجو من يوم القيامة.

يا أبا ذر الكيّس من أدّب نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتّبع نفسه وهواها.

يا أبا ذر إنّ أوّل شيء يُرفع من هذا الأمة الأمانة والخشوع حتى لا يكاد يُرى خاشعاً.

يا أبا ذر إن الله تبارك وتعالى أوحى إلى أخي عيسى بن مريم، يا عيسى لا تحبّ الدنيا فإني لست أحبها وأحبّ الآخرة فإنّما هي دار القرار.

يا أبا ذر إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبدٍ خيراً فقّهه في الدين وزهّدَهُ في الدنيا وبصّرَهُ بعيوب نفسِه.

يا أبا ذر ما زهد عبدٌ في الدنيا إلاّ أثبتَ الحكمة في قلبِه وأنطَقَ به لسانه، وبصّرَه عيوب الدنيا ودائها ودوائها وأخرجه منها سالماً إلى دار السّلام.

يا أبا ذر إذا رأيت أخاك قد زهد في الدنيا فاستمع منه فإنّه يلقي إليك الحكمة، فقلت يا رسول الله: من أزهد الناس؟

قال من لم ينسَ المقابر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعدّ غداً من أيامه وعدّ نفسه في الموتى.

يا أبا ذر إنّي ألبسُ الغليظ وأجلس على الأرض والغي أصابعي وأركبُ الحمار بغير سرج وأردف من خلفي فمن رغب عن سنّتي فليس منّي.

يا أبا ذر إنّ ربي عزّ وجلّ أخبرني فقال وعزّتي وجلالي ما

أدرك العابدون درك البكاء وإنّي لأبني لهم في الرفيق الأعلى قصراً لا يشركهم فيه أحد قال: قلت يا رسول الله أي المؤمن أكيس؟

قال: أكثرهم للموت ذكراً وأحسنهم له استعداداً.

يا أبا ذر دخل النور في القلب انفتح القلب واستوسع قلت: فما علاقة ذلك بأبي أنت وأمّي يا رسول الله؟ قالﷺ: الإنابة إلى دار الخلود والاستعداد قبل نزوله.

يا أبا ذر اتّق الله ولا تُري الناس إنك تخشى الله فيكرموك وقلبك فاجرٌ.

يا أبا ذر ليكن لكَ في كل شيء نيّة حتى في الأكل والشرب والنّوم.

يا أبا ذر اخفض صوتك عند الجنائز وعند القتال وعند القرآن.

يا أبا ذر إذا اتّبعت جنازة فليكن عملك فيها بالتفكر والخشوع واعلم إنّك لا حقّ به.

يا أبا ذر ركعتان مقتصدتان في تفكّر خيرٌ من قيام ليلة والقلبُ فيها ساه.

يا أبا ذر الحقّ ثقيلٌ مر، والباطل خفيفٌ حلو، ورُبّ شهوةٍ

ساعة تورث حزناً طويلاً.

يا أبا ذر لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يرى الناس في جنب الله تعالى أمثال الأباعر ثمّ يرجع إلى نفسه فيكون هو أحقر حاقرٍ لها.

يا أبا ذر لا تصيب حقيقة الإيمان حتى ترى الناس كلّهم حمقى في دينهم عقلاء في دنياهم.

يا أبا ذر حاسب نفسَك قبل أن تُحاسب وهو أهون بحسابك غداً، وزن نفسك قبل أن توزَنَ وتُجهز للعرض الأكبر يوم تُعرض ولا تُخفى على الله منك خافية.

يا أبا ذر استحي من الله فإنّي والذي نفسي بيده لأظلّ حين أذهب إلى الغائط متقنعاً بثوبي أستحي من الملكين الذين معي.

يا أبا ذر أتحبّ أن تدخل الجنة، قلت: نعم فداك أبي وأمّي، قالﷺ: فأقصر من الأمل واجعل الموتَ نُصبَ عينيكَ، واستحي من الله حقّ الحياء، قال: قلت يا رسول الله، كلّنا نستحي من الله، قال: ليس كذلك الحياء، ولكن الحياء، أن لا تنسى المقابر والبلى والجوف وما وعى والرأس وما حوى، ومن أراد كرامة الآخرة فليدع زينة الدنيا فإذا كنتَ كذلك أصيب ولاية.

يا أبا ذر يكفي من الله الدعاء من البر ما يكفي الطعام من

الملح.

يا أبا ذر مثل الذي يدعو بغير عمل كمثل الذي يرمي بغير وتر ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

يا أبا ذر إن الله يصلح بصلاح العبد ولده وولد ولده، ويحفظهُ في دويرته والدور حوله ما دام فيهم.

يا أبا ذر إنّ ربّك عزّ وجلّ يباهي الملائكة بثلاثة نفر، رجل في أرض قفر فيؤذن ثمّ يقم ثمّ يصلي فيقول ربّك للملائكة انظروا إلى عبدي يصلي ولا يراه أحدٌ غيري فينزل سبعين ألف ملك يصلّون وراءه ويستغفرون له إلى الغد من ذلك اليوم، ورجلٌ قام من الليل فصلّى وحده فسجد ونام وهو ساجدٌ، ورجلٌ زحف بفرّ أصحابه ويثبت وهو يقاتل حتى يُقتل.

قال تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئاً وَأَقْوَمُ قِيلاً﴾.

يا أبا ذر اترك فضول الكلام وحسبك به حاجتك.

يا أبا ذر ما من شيء أحقّ بطول السجن من اللسان.

يا أبا ذر وإن من إجلال الله تعالى إكرام ذي الشيبة المسلم وحملة القرآن العاملين به وإكرام السلطان المقسط.

يا أبا ذر لا يزال العبد يزداد من الله بعداً ما يسيء خلقهُ.

يا أبا ذر همّم بالحسنة وإن لم تعملها لكيلا تُكتب من الغافلين.

يا أبا ذر من مَلَكَ ما بين فخذيه وما بين لحييهِ دخل الجنّة، قلت: يا رسول الله، إنّا لنأخذ بما تنطق به ألسنتنا، قالﷺ يا أبا ذر وهل يُكبّ على مناخرهم في النار إلاّ حصائد ألسنتهم إنّك لا تزال سالماً ما سكتَ فإذا تكلمت كتب عليك.

يا أبا ذر ذكر عليّ بن أبي طالبﷺ عبادة، ومن علامات المنافق يتنفر عن ذكره ويختار استماع القصص الكاذبة وأساطير المجوس على استماع فضائله.

ثم قرأ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾.

فسُئلﷺ عن تفسيرها قال: ما تدرون أنّ رسول اللهﷺ كان يقول اذكروا علي بن أبي طالبﷺ في مجالسكم فإنّ ذكره ذكري وذكري ذكر الله فالذين اشمأزّت قلوبهم من ذكره واستبشروا عن ذكر غيره أولئك الذين لا يؤمنون بالآخرة ولهم

عذاب مهين.

يا أبا ذر سيكون ناس من أمتي يولدون في النعيم ويغذون به وهمّتهم ألوان الطعام والشراب ويمدحون بالقول أولئك شرار أمّتي.

يا أبا ذر طوبى لمن تواضع لله في غير منقصة وأذلّ نفسهُ في غير مسكنة وأنفق مالاً جمعه في غير معصية ورحم أهل الذل والمسكنة وخالط أهل الفقه والحكمة طوبى لمن صلحت سريرته وحسنت علانيّته وعزل عن الناس سرّه طوبى لمن عمل بعمله وأنفق الفضل من قوله.

يا أبا ذر البس الخشن من اللباس والصفيق من الثياب لئلاّ يجد الفخر عليك مسلكاً.

يا أبا ذر يكون في آخر الزمان قومٌ يلبسون الصوف في صيفهم وشتائهم يرون أن لهم الفضل بذلك على غيرهم أولئك يلعنهم ملائكة السماء والأرض.

يا أبا ذر ألا أخبرك بأهل الجنّة فقلت: بلى يا رسول الله قال: «كلّ أشعث أغبر، ذي طمرين، لا يُؤبه به لو أقسم على الله

لأبرّه»[1].

هذا آخر ما عزمنا إيراده في هذه الخاتمة، راجين من الحق سبحانه أن يحسن لنا الخاتمة وأن لا يحرمنا من خدمة الدين والشريعة ومن الزود عن معارفها المنيعة، بمحمد وعترته الأطيبين الأطهرين صلوات الله عليهم أجمعين

الشيخ إبراهيم سرور

بيروت في ٢٠٠٤/٩/٢٦

الموافق لـ ١١/ شعبان/ ١٤٢٥هـ.

---

(١) إن الوصية بهذا الكلام قد ختمت، ورواية هذه الوصية مسندة عن طريق صحيح، رواها أبو الأسود الدؤلي عن أبيه عن أبو ذر في مكارم الأخلاق، الحسن بن الفضل الطبرسي، ص٥٠٦ــ ٥٢٦، ط. النجف، تنبيه الخواطر وتزهة النواظر، مجموعة ابن ورام، أبو الحسن ورام بن أبي فراس، ط. طهران، كما إن بعضها مروي في كتب الصحاح على شكل نصائح للرسول ﷺ ومفرقة حسب علومها.

المصادر

١. القرآن الكريم.
٢. بحار الأنوار/ المجلسي.
٣. نهج البلاغة/ ابن أبي الحديد
٤. الطريق إلى الله/ حسين البحراني
٥. تفسير الميزان/ الطباطبائي
٦. تفسير مجمع البيان/ الطبرسي
٧. مرآة الرشاد/ الماحقاني
٨. الأربعون حديثاً/ الخميني
٩. منازل السائرين/ الأنصاري
١٠. الروح المجرد/ الطهراني
١١. جامع السعادات/ النراقي
١٢. مجموعة ورام.
١٣. الصحيفة السجادية.
١٤. الكافي/ الكليني
١٥. محاسبة النفس/ الكفعمي
١٦. تزكية النفس (الحائري).
١٧. نورة الحقيقة ونور الحديقة.البهائي
١٨. مصباح الشريعة.
١٩. التعريفات (الجرجاني).
٢٠. الرسالة القشرية.
٢١. عدة الداعي/ الحلي
٢٢. مهج الدعوات.
٢٣. السير إلى الله (آملي).
٢٤. وسائل الشيعة/ الحر العاملي
٢٥. كشف الغمة.
٢٦. مشكاة الأنوار/الطبرسي
٢٧. فلاح السائل/ ابن طاووس
٢٨. مستدرك الوسائل.
٢٩. إرشاد القلوب/ الديلمي
٣٠. الإشارات والتنبيهات/ ابن سينا
٣١. غرر الحكم/ الآمدي
٣٢. مفاتيح الجنان/ القمي
٣٣. المحجة البيضاء/ الكاشاني
٣٤. سيماء الأولياء وكراماتهم
٣٥. أوصاف الأشراف/ الطوسي
٣٦. الفضائل والأضداد الشيرازي
٣٧. منهاج النجاة/ الكاشاني
٣٨. جامع المعارف والأحكام/ شبر
٣٩. حلية الأولياء.
٤٠. النافع يوم الحشر/ الحلّي
٤١. تفسير البرهان.
٤٢. تفسير القمي.
٤٣. منية المريد/ الشهيد الثاني
٤٤. التفسير الكبير للرازي.
٤٥. عارف في الرحاب القدسية.
٤٦. الخصال.

الفهرس

الإهداء ٧
المقدمة ٩

الفصل الأول: آداب العارف

١ـالصواب وعدم الخطأ: ١٨
٢ـ ثبات إيمانه: ١٩
٣ـ العارف أعقل الناس: ١٩
٤ـ السكوت: ٢٢
٥ـالإجتناب عن المحارم: ٢٥
٦ـمعرفة النبي والأئمة عليهم السلام: ٢٦
٧ـ شخصه مع الخلق: ٣١
٨ـ الحب والشوق الدائمين: ٣٢
٩ ـ حسن الخلق: ٣٦
١٠ـ الحزن والبكاء: ٣٨

الفصل الثاني: التفكر

أولاً: الإرادة: ٥١
ثانياً:التفكّر ٥٢
التفكر في النفس: ٦٢
إدامة التفكر والنظر في الحديث المعروف عن أمير المؤمنين عليه السلام. ٦٥

الفصل الثالث: التذكر

تعظيم الخالق بنظر المخلوق: ٦٨
١ـ تذكر الله لطرد الشيطان: ٧٧
٢ـ تذكر أحوال الماضين من الأموات: ٨٠
٣ـ الإنتفاع بالموعظة: ٨٤
٤ـ العلم: ٨٨

الفصل الرابع:العزم

العزم ٩٦

الفصل الخامس: التوكل

التوكل ١١٨

الفصل السادس: المشارطة

٧ـ الورع عن المكروهات والإلتزام بالمستحبات ١٥٠
٨ـ الإنقطاع إلى الله تعالى، والإنقطاع عما سواه: ١٥٠

الفصل السابع: المراقبة

الدرجة الأولى مراقبة المقربين: ١٧٤
الدرجة الثانية، درجة مراقبة الورعين من أصحاب اليمين: ١٧٥

الفصل الثامن: المحاسبة

الأول: المحاسبة الظاهرية: ١٩٣
الثاني: المحاسبة الباطنية: ١٩٥

الفصل التاسع: شذرات من كلام أمير المؤمنين عليه السلام والعرفاء

المقام الأول (الولاية): ٢٠٥
المقام الثاني (المحبة): ٢٠٦
ومن كلام له عليه السلام يصف أحوال تقي عارف بالله ٢١٠
فصل في مجاهدة النفوس وما ورد في ذلك من الآثار ٢١٢
ومن كلام له عليه السلام قاله عند تلاوته: ﴿يُسَبِّحُ ....﴾ ٢١٩
بيان أحوال العارفين ٢٢٣

الفصل العاشر: خطبة البيان ووصية الرسول صلى الله عليه وآله لأبي ذر

خطبة البيان ٢٥٢
وصية الرسول صلى الله عليه وآله لأبي ذر ٢٦٤

المصادر ٢٧٧

الفهرس ٢٧٩

هَجَمَ بِهِمُ العِلمُ على حقيقَةِ البصيرة ، وباشرُوا رُوحَ اليَقـين ، واستلانُوا ما استوعرَهُ المُترَفون ، وأنِسُـوا بما استوحشَ منهُ الجاهِلُون ، وصحبُوا الدُّنيا بأبدانٍ أرواحُها معلقة بالمحل الأعلى أُولئِكَ خلفاءُ اللّه في أرضِهِ والدُّعاةُ إلى دينهِ ، آه آه ! شوقا إلى رُؤيتهم ..

إمام المُوحدين
وأمير المُؤمنين

دار المعارف الأسلاميّة

MAARIF@HOTMAN.COM

FADAK BOOK
2000